"الكتاب الفائز بجائزة البلقان الأدبية عام 2012"



القزم

ألكسندر بروكوبييف

ترجمة: ليلى البدري



قصص قصيرة مترجمة



القزم

وقصص أخرى

القزم وقصص أخرى

تأليف: ألكسندر بروكوبييف

ترجمة: ليلى البدري

مراجعة وتحرير: هدى فضل

مُراجعة لغوية: محمد أبوعوف

الطبعة الأولى: 2019

رقم الإيداع: 2019/8459

الترقيم الدولي: 9789773194642

تصميم الغلاف: إسلام علّام



60 شارع قصر العيني --11451 القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg



Република Македонија
МИНИСТЕРСТВО ЗА КУЛТУРА

This translation is published with financial support from the Ministry of Culture of the Republic of Macedonia".

ألكسندر بروكوبييف

القزم

وقصص أخرى

مجموعة قصصية من مقدونيا

ترجمة: ليلى البدري



بطاقة فهرسة

بروكوبييف، ألكسندر

القزم وقصص أخرى: مجموعة قصصية من مقدونيا/ تأليف: ألكسندر بروكوبييف؛ ترجمة: ليلى البدري.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2019.

ص؛ سم.

تدمك 9789773194642

1- القصص المقدونية

أ- البدري، ليلى (مترجم)

ب- العنوان 891.8193

القصة الأولى

القزم





"من الأفضل أن تُروى أحداث هذه القصة الخيالية في الصباح الباكر

أثناء تناول حساء دسم على الإفطار

وبعد ليلة طويلة من الإفراط في الشرب".



أمي، هل عدتي مرة أخرى لعلاقتك بذلك الشاب الذي يماثلني في العمر؟

آه لو لم أكن ابنك.. أنا لا أعارض وجوده بيننا. لا بد وأنه رجل صالح؛ لأنه تطوع بدفع مبلغ 714 يورو قيمة نفقات علاجي في المصحة. وبهذه المناسبة لا يفوتني أن أشكر له ما فعله معي من خير ورعايته لي، وتكفله بنفقات علاجي أثناء الفترة التي أمضيتها هناك. وعلى الرغم من أن تلك المصحة هي أبعد ما تكون عن مكان لتلقي العلاج، فهي في أحسن الأحوال لا تتعدى كونها إصلاحية للمعاقين. بالطبع أنتم تدركون الفارق. فبمجرد وصولي إلى هناك، وفي الأسبوع الأول من إقامتي بها، عوقبتُ لأنني كنت أستمع "للووكمان" الخاص بي في الفترة ما بين الساعة 15:00 و17:30 المسماة بساعات الراحة. كيف يتسنى لي أن أعرف أن الموسيقى المنبعثة من جهاز "الووكمان" الخاص بي قد تصبح مصدر إزعاج لأحد؟ لكن على كل الأحوال تم الإمساك بي. وقررت تلك المديرة، السيدة "كيراكا" أن تعاقبني بالحبس لمدة يومين وليلتين كاملتين داخل "بدروم" فارغ تمامًا

من أي شيء إلا من كرسي وحيد مثبت في الأرض، وهذا بعد أن تم تقييدي وتسليط أضواء كاشفة قوية على وجهي.

هل لكِ أن تتخيلي يا أمي شعوري حينها؟ خصوصًا مع ذلك الضوء الذي اخترق عيني كالإبر، وهذا الحبل السميك المحكم الذي أحاط بي وأصاب جسدي بالألم؟ شعرت بالاضطراب داخل تلك الغرفة المروعة الخالية من أي نافذة والمغلقة بباب حديدي.

لا عجب إذًا في أن يطلق الأطفال المقيمون بالمصحة على هذه الحجرة اسم "الغرفة الملعونة". ففي تلك الغرفة لن يستغرق الأمر أكثر من ساعتين حتى يفقد من بداخلها القدرة على معرفة ما إذا كان الوقت بالخارج نهارًا أم ليلًا. ما إذا كانت الناس بالخارج تتحرك في وضح النهار أم أنهم غارقون في سبات عميق ويحلمون بسلام في سكون الليل.

بعد مرور وقت طويل، وبشع، ومرير على وجودي داخل هذه "الغرفة الملعونة"، حرّك أحدهم الغطاء الذي يغطي ثقب الباب الحديدي وبدأ يحدِّق في وجهي. كان بإمكانك لو كنت مكاني أن تشعر بنظرته الباردة المستهزئة لكنك للأسف لن تتمكن من تحديد هويته لأن عينيك قد أصابهما العمى بسبب تلك الدوائر الخضراء التي تسبب فيهم الضوء القوي المسلط على وجهك. في مكان ما هناك بالخارج خلف ذلك الثقب الصغير، وفيما وراء ذلك المعذِّب الساخر، يوجد عالم فسيح يتحدث فيه الناس ويتحركون وفي بعض الأحيان يضحكون. ويُخيل إليك من فرط الألم، أن حتى عالم المصحة غير الجذاب المحدود والمقيد يبدو جميلًا وحرًا مقارنة بتلك "الغرفة

الملعونة". نعم، عالم حر!! لتعود بعد ذلك مرة أخرى إلى محبسك لتقضي ليلتك الثانية ويعود الضوء ليخترق عينيك بلا هوادة كسيخ محمي يشبه إلى حد كبير سكين الجزار. وقبل مرور وقت طويل.. طويل جدًا، تنتابك في النهاية نوبة من الصراخ والعويل كالمجانين. هذا المخبول الذي يصرخ هو أنت. سيظل يصرخ بصوت عالٍ، ويعوي بصوت مبحوح لم تسمعه في حياتك من قبل سوى مرتين: مرة عند ولادتك، والثانية وأنت في الحمام. فُتح الباب. وبدأت أسمع صوت خطوات مديرة المصحة السيدة "كيراكا" وهي تقترب. يمكنني التعرف عليها من صوت خطواتها المميز ولكنني لا أستطيع بالطبع أن أراها بسبب هذا الضوء القاتل.

تقترب منك وأنت تعلم أنها تنظر إليك بازدراء. تبدأ بالتخمين فيما إذا كانت ترتدي كعادتها بنطلونها الأسود ومعطفها الأسود المغلق بعناية. فجأة تجدها واقفة أمامك مرتدية لمعطفها وياقة قميصها ناصعة البياض المكوية تظهر من تحته. لتسمع صوتها بعد ذلك وهي تتحدث إليك.

أمي الحبيبة! إن كان هناك من تولى رعايتي منذ مولدي فهو أنتِ! على الرغم من مفاجئتي لكِ بطريقة غير سارة لحظة ميلادي! للدرجة التي لم تستطيعي معها أن تعترفي ولو حتى لنفسك بأنني طفلك. وكيف ذلك؟ وقد قُدِّر لكِ أن تحملي بين يديك قزمًا رضيعًا جسده الصغير مغطى بالكامل بشعر أسود لطالما أثار غثيانك وأنت ما زلتِ تحملينه في رحمك. يمكنني أن أتخيل مدى الصعوبة التي مررت بها وأنت تحملينني في رحمك. ومدى صعوبة المشهد وأنتِ ترينني لأول مرة وأنا أخرج منكِ كفأر مبلل خرج للتو من ماسورة الصرف الصحي. حتى بالنسبة لطبيب النساء

والتوليد الذي ساعدك أثناء الولادة - مع كل احترامه لجمال وجهك ومهبلك الذي لا نظير له - لم يتمالك نفسه ولم يستطع أن يمنع عينيه من الاتساع من هول الـصدمة عندما رآني. وما زاد الوضع سوءًا هو سماعه لصوت بكائي المروع، والذي جـزع منـه كل من كان في جناح الولادة. لأنه لم يكن يشبه صوت بكاء الرضع المعتـاد بـل كـان أقرب ما يكون إلى صوت عواء طويل أطلقه حيوان بري مجـروح بـسبب الألم. هـذا طبيعي، أنا بالطبع لم أكن مدركًا في هذا الوقت لهول وقـع الـصدمة الـذي تـسببت فيه بسبب صوتي ومظهري لحظة الولادة.

لكن وبعد مرور 10 سنوات على هذه الحادثـة الحزينـة، وبعـدما بلغـت سـن البلوغ، وجدتني وقد حفظت عن ظهر قلب تفاصيل هذا الحادث المـروع وشـعرت في عقلي الباطن كم أنا مسكين بسببه.

كعادتي بقيت في الحمام لبعض الوقت أتأمل ملامح وجهي في المرآة، وأنـا أشـعر بالذنب كالعادة، بسبب مظهر وجهـي البـشع المغطـى بكـل تلـك البثـور المتقيحـة وشفتي المتورمتين بفعل بقع الجرب البيضاء المنتشرة عـلى جانبيهـا، وأبعـاد وجهـي الضخمة الموزعة بشكل غير متجانس وترأس قمة جـسدي الكـسيح، وهيئتـي التـي تشبه هيئة مهرج السيرك. عيناي فقط كانتا تلمعان مثـل لمعـان عيـون القطـة وأنـا أتأمل صورتي في المرآة بحزن. بـدت نظـراتي غـير إنـسانية، وبـاردة عـلى الـرغم مـن الغضب الهائل الذي يموج داخلي بـسبب جـسدي. ربمـا كانـت كـل نظـراتي لنفـسي قاسية على هذا النحو بسبب تلك السلسلة الـلا نهائيـة مـن تجـاربي البائـسة التـي مررت بها منذ أن كنت طفلًا رضيعًا والتي جففت الدمع في عيني من كثرة البكاء.

حينها فقط وبينما أنا واقف أمام المرآة أواجه قبحي للمرة المئة، وإذا بباعث مجهول يشتعل في صدري العليل المشوه، ليحيي بداخلي بعض الأحزان الدفينة ويحررها كوحش جامح من بين أسناني الواهنة لتنطلق على هيئة صرخة برية مدوية تلتها صرخة أخرى، وظللت هكذا حتى بدأتُ في العواء كالذئاب. كل هذا وأنا وحدي في الحمام. لحسن الحظ، أنكِ يا أمي لم تكوني متواجدة بالشقة في تلك اللحظة. فقد كنتي تستمتعين بموعدك الغرامي مع عشيقك الشاب في مقهى "الجورنال" وبالطبع كنتي غير قادرة على سماع صوت صرخاتي الهمجية التي تردد صداها في أرجاء الشقة طلبًا للمساعدة.

سامحيني يا أمي! سامحيني، على قبحي، سامحي ذلك اللا شيء والتفاهة والنتانة المنبعثة من هذا الكائن البشري الفاشل الذي يتجرأ ويطلق على نفسه اسم ابنك!

لم يختلف وضعي كثيرًا في "الغرفة الملعونة" عمَّا أنا عليه الآن في "المرحاض"، فقد بدأت بذرف دموع - لا نهاية لها - متبوعة بعويلي ونحيبي المريع. حينها سألتني "كيراكا" - وأنا أتصرف كالمجنون ووجهي كله ملطخ بالدموع والمخاط - بصوت هادئ تمامًا:

- لماذا تصرخ كثيرًا هكذا؟

أجبتها وأنا غير قادر على رؤية ما وراء هذا الضوء السادي الذي يخترق عيني:

- أرجو المعذرة يا آنستي.

قاطعتني بقولها:

- أنا لستُ " آنسة".

أجبتها وأنا أبكي:

- ولكنك المديرة.

هل لكِ أن تتخيلي يا أمي إلى أي مدى شعرت بالتعاسة والبؤس والاكتئاب؟ وكم كان نضالي مريرًا من أجل أن أجفف دموعي وأكبت أية صرخة قد تخرج من فمي. لقد حاولتُ جاهدًا لكنني فشلت. فصرخت من الداخل ومن الخارج. وعندما تمكنت في النهاية من رؤية عينيها وهي تتفحصني بانتباه وثبات، انتابني شعور بأنها تريد أن تظهر نزعة التسيد والسيطرة، حينها شعرت بالتعاسة والبؤس، وبأنني قد عوقبت بشدة.

- لقد نلت ما تستحق من العقاب. والآن عليك أن تتحمل البقية وأن تتوقف عن التلوي مثل الدودة!

لقد بدت "كيراكا" وكأنها قادرة على قراءة أفكاري الحمقاء، مما جعل وقع الجملة علي أكثر قسوة الآن لأنني ضعيف للغاية لدرجة أنني لم أستطع أن أدافع عن نفسي وأن أمنعها من إيذائي.

هكذا كان حالي في المصحة؛ ضعيف وبائس. لكن حتى وأنا في أشد حالات الانحطاط والضعف، كنت أصب وابل لعناتي على "كيراكا". وحتى

عندما رحلت وتركت الغرفة الملعونة، ظلت آثار اللا مبالاة والقسوة اللتان تتسم بهما تملأ المكان. أقسمت لنفسي حينها مئات المرات أن أثأر لنفسي منها. هذا هو الثمن الذي يجب على أصحاب الأرواح المعذبة أن ينتزعوه من معذبيهم. ماذا يمكن لقزم مثلي أن يفعل غير ذلك؟ قزم يشبه "كوازيمودو"؛ تم إخضاعه من قِبل "كيراكا" تلك بقوة الامتهان القهري اللا نهائي. عندما ألقت بي داخل هذه "الغرفة الملعونة"؟ التي كلما أردت أن أرفع عيني وأنا فيها صوب السماء لكي أصلي، يجلدني هذا الضوء الصناعي المسلط على عيني ليعيدني لحالة الخضوع والاستسلام التي كنت عليها. وكلما حاولت أن أتنهد، لكي أخفف ما أشعر به من ألم، فإذا بهذا الحبل السميك المحكم الذي يطوقني يحفر بصورة أعمق داخل صدري. أنا أعلم يا أمي أنكِ حتى في مثل تلك الساعات البشعة لطالما كنتِ قادرة على أن تخلصي نفسك من كل تلك الأفكار الشريرة التي تدور في رأسي وأن تتغلبي على كل مشكلاتك عن طريق احتفاظك بهذا السلام الداخلي الذي يملأ صدرك. أما أنا فأبعد ما أكون عن فضائلك!

ثابرت وجاهدت نفسي فيما تبقى لي من وقت أكافح فيه تحت وطأة هذا العذاب المهين. ظللتُ هكذا طوال الليلة الثانية على الرغم من أنني لم أعد أعي كم مر علي من وقت. وعندما دخلوا إلى الحجرة لكي يخبرونني بأن كل شيء قد انتهى وأن ساعة رحيلي من الغرفة قد حانت وقاموا أخيراً بفك وثاقي، بقيت ببساطة جالسًا في مقعدي كما لو كنت محبوسًا داخل شرنقة؛ مرتبك وغير قادر على تحريك عضلاتي على الرغم من أن الحبل الذي كان يقيدني قد

أزيح وتُرِك الباب مفتوحًا أمامي. أنا فقط لم أستطع أن أتحرك. في تلك اللحظات شعرت وكأنني أصبحت أعمى وأصم؛ شعرت وكأنني ميت.

لملمت شتات نفسي، ووقفت على قدميّ، وتركت الغرفة وقد ارتسمت على شفتَي ابتسامة. منذ ذلك اليوم، وأنا أتصرف كمريض نموذجي: من الخارج أبدو مطيعًا ومستسلمًا، بينما عقلي يفكر في الانتقام.

لقد نُحت في ذاكرتي كيف كنتِ تراعينني وأنا طفل صغير.. صغير للغاية، فقد كنت أصغر بخمس مرات من كل الأطفال في مثل عمري ورفضت أن أنمو أكثر من ذلك. لقد كنتِ دومًا ترعينني في كل الأوقات. وكنت أراكِ وأنتِ ممزقة ما بين التزاماتك وواجباتك نحوي وما بين عشيقك ولكنك كنت دومًا تنجحين في الحفاظ على هذا التوازن بيننا ولم تيأسي يومًا أو تستسلمي على الرغم من كل الصعاب.

ولهذا السبب، يا أمي الحبيبة، أنا سعيد بشدة لأنك قد وجدتي أخيرًا الرجل الذي يليق بك. فهو شاب. قوي البنية. فحل! عندما قدمتيه لي لأول مرة، كان علي أن أعترف بأنني قد شعرت برغبة شديدة في قضم قطعة من وجهه الوسيم. لأنه كان جذاب بصورة لا تقاوم. فهو يتمتع بعينين سوداوين لامعتين، وأسنان برَّاقة ظهرت واضحة عندما رسم على وجهه ابتسامة عريضة، وبدقة طابع الحسن الساحرة في ذقنه الذكورية. لكم تمنيت أن أمزق هذا التناسق الفتَّان بأسناني حتى أحيله إلى كومة دموية وأذبح تلك النزعة الذكورية المتغطرسة لهذا الشاب المتأنق. ماذا يمكنني أن أقول عن طوله؟ فهو يقتلني بطوله هذا، يا أمي. يقتلني! لدرجة أنني

قـد تملكتنـي رغبـة محمومـة في أن أقـصر سـاقيه الطـويلتين الـرائعتين هـاتين. في الحقيقة، لقد شرعت بالفعل في التخطيط لكيفية تطبيق ذلك. فشخص قبيح وبشع وحقود مثلي من السهل أن تنحرف روحه نحو وضع خطط جهنمية للانتقام.

تقع شقتنا بالـدور الخـامس داخـل إحـدى البنايـات التـي لا يوجـد بهـا مـصعد. ستعتمد خطتي على أن شخص مثل هذا الشاب المفعم بالثقة بالنفس والذي عادة ما يسير بثقة وغرور، ولا يهتم أين يضع قدميه خصوصًا أثناء زياراته المتعددة لغرفة نوم أمي - التي لا يكـف فيهـا عـن الحركـة. في إحـدى هـذه الزيـارات التـي يكـون فيهـا مـستلقيًا إلى جـوارك في الـسرير، منهمكًـا في الاسـتمتاع بتـذوق منحنيـات جـسدك بشهوانية وشبق ساعة تلو الأخرى.. ويقوم خلالهم بتمزيق ملابسك الداخلية السوداء (تلك الخدعة الغبية التي لا بد وأنه قد تعلمها من خلال مشاهدته للكثير من الأفـلام الإباحية الرخيصة)، وبينما هو منشغل بكـل ذلـك سـأكون أنـا قـد نـصبت لـه الفـخ. سأقوم بمد جزء صغير من خيط رمادي رفيع عبر أحد السلالم التي تقـع بـين الـدورين الخامس والرابع، وأثبتها بقوة بـ"الدرابزين" من ناحية وبالحائط من الناحيـة الأخـرى، بحيث يكون الخيط مثبتًا في موضع قريب جدًا من السلمة بحيـث لا يلاحظهـا رجـل مثله.

أنا أعلم بالطبع إلى أي مدى يكون شـعور الـشخص بفقـدان توازنـه غـير سار، حيث يطير الجسد الذي فقد توازنه في الهـواء، ويخفـق القلـب بجنـون خشية ما سيقع لحظة الارتطام. الأمـر كلـه لـن يـستغرق سـوى بـضع ثـوان ولكن في هذا الوقت القصير سيكون مـن دواعـي سروري أن أسـتمتع برؤيـة

الخـوف وهـو يحيـل جـمال وجـه هـذا الغنـدور المتغطـرس إلى تعبـيرات ملتويـة، ومضطربة، ومتألمة.

رأيته أثناء سقوطه، وقد شتم ولوَّح بذراعيه في الهـواء قبـل أن يُحـدث ارتطامـه بالسلالم صوتًا عاليًا يشبه صوت طقطقة فرع شجرة سميك عنـد كـسره إلى نـصفين. ساد موقع الحادث صمت مطبق للحظة، ظهر فيها هذا الغندور ممددًا على الدرج بساقين ملتويتين. وإذا به يحاول أن يرفع رأسه المصاب من عدة جوانـب بالتـصوير البطيء. بدأ في النحيـب والعويـل. كانـت سـاقه اليمنـى مـا زالـت ملتويـة، وتمـزَّق بنطلونه عند الركبة وبرزت قصبة رجله المكسورة من مكان التمـزق كزهـرة ورديـة. تلتها لحظة أخرى من الصمت المطبق، امـتلأ فيهـا صـدري بـدفء مـبهج ومـريح.. ليعلو صوت صريخه بعد ذلك. بعدها، شاهدتكِ يا أمي وأنـت تهـرولين إلى الأسـفل على السلالم بأقصى سرعة ممكنة متجهة نحوه، كأنك تحاولين الطيران. لمـستي خـده المنتفخ، ووجهه غير الجذاب بمنديل أبيض. كـان يـبكي حينهـا. جثـوتي عـلى ركبتيـك بجواره كجنيه طيبة وحنونة تحاولين أن تهدئي مـن روعـه بكلـمات رقيقـة وحانيـة، وتقبلينه طوال الوقت كأنه طائر صغير مجروح وليس شابًا يافعًا مكتمل الرجولة.

انفصلت عنك مرة أخرى لأعود لسجن نفسي مـرة أخـرى خلـف جـدران قبحي وبـشاعتي. وإذا بي أنـزوي مـرة أخـرى داخـل الحـمام لكنـك للأسـف الشديد لم تلحظي غيابي. كنتِ منهمكة في محاولـة مـداواة جـروح عـشيقك، الـذي لم تتـوقفي ولـو للحظـة مـن الـركض حولـه، ولم تتـوقفي عـن إجـراء الاتصالات بأقسام الحوادث والطوارئ بالمستـشفيات وبأصـدقائك، وبعـد أن

نقلتيه من على السُلَّم إلى سريرك لتراعيه بكل التفاني والإخلاص. أمَّا أنا فقد اشتعلت بداخلي - على الرغم من كل جهودي لمنعها - عاصفة من نيران الغيرة والحسرة التي ظلت تأكل في قلبي! فحبيب قلبك أصبح يستمتع بدوره الجديد كرجل مجروح، وهو يعلم جيدًا أنك ستتفانين في خدمته والسهر على راحته ليل نهار، بعد أن نفضت يدك من كل شيء إلا من العناية ببشرتك المخملية واستعراض مهاراتك في الطهي. أمَّا أنا فقد عانيت كثيراً، وصرت محطمًا ومجروحًا. أصبح قلبي ممزقًا. فقد ذهبت كل جهودي سُدى، لأنك من الآن فصاعد بدًلا من أن تتفرغي لي، أصبحت متفرغة بالكامل له وجالسة على الدوام إلى جواره لتعتني به؛ كل هذا بسبب حماقتي!

أعلم جيدًا يا أمي أنني لطالما كنت عبئا عليك منذ أن كنت جنينًا في بطنك. وعضو الحزب الشيوعي ذاك - الذي من المفترض أنه أبي - بعد أن استمتع بجسدك الرائع الفتان هذا ليلة تلو الأخرى، تخلى عنك بمنتهى الوقاحة - ودون أدنى شعور بالخجل - عندما أخبرته بأنك حامل. وقرر طردك بمنتهى الخسة والنذالة دون أن ينطق بكلمة، متناسيًا تأكيداته الجوفاء التي همس بها في أذنيك وهو يزحف بين ساقيكِ عن أنه لا يمكن أن يحيا في هذا العالم دونك. هذا الجبان الجشع، هذا الوغد صاحب "المنصب الرفيع" الذي ارتعدت أوصاله من الخوف خشية أن تؤدي علاقته بك إلى تدمير مستقبله السخيف. ابن الحرام هذا الذي تركك وحدك في الشارع، كالمشردة، أو كأي عاهرة حامل.

كم عانت روحك الرقيقة بسبب كل ذلك الظلم الذي وقع عليك! وأنت تحملين كل تلك الحقائب الثقيلة المملوءة بالكتب الموسوعية. أربع حقائب

ثقيلة وضخمة تحملينها في كل يد، وتجرينهم طوال اليوم وحدك عبر الشوارع والحارات الزلقة في المدينة، لتعودي إلى البيت وأنتِ غارقة في عرقك، وأنت ما زلت تحملين تلك الموسوعات، وتجرينهم على سلالم المبنى الذي توجد به شقتنا وأنت مصرة على حملهم خمسة أدوار إلى الأعلى وخمسة أخرى إلى الأسفل، لتعاودي الكرة وتجرينهم خمسة أدوار أخرى إلى الأعلى وإلى الأسفل.. وهكذا. لكن، وعلى الرغم من كل ذلك الجهد الجبار الذي بذلتيه لكي تتخلصي مني؛ ما كان لي أن أسمح لكِ بالتخلص مني. لكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن لماذا لم أتركك تفعلين ذلك؟ ربما لو حدث ذلك لأصبحنا نحن الاثنين أسعد وأفضل حالًا؟ أنت تستمتعين بحياتك مع عشيقك.. أو عشاقك، ربما. لأنك أكثر امرأة فاتنة رأيتها في حياتي. أمي. حتى في طفولتي المبكرة، لطالما لاحظت الطريقة التي ينظر الرجال بها إليك وهم يحاولون أن يلتهموكِ بأعينهم، وكيف كانوا يرمونكِ بابتساماتهم المغرية بكل ما تحمله من عقد ذكورية متضخمة، وكيف أن الجزء الأكثر جرأة منهم قد يغامر بإطلاق العنان لاقتراحاته شبه الغامضة عبر رفع أحد حواجبهم تحية لكِ. لكن العجيب في الأمر هو كيف تتغير تعبيرات وجوههم فجأة عندما يرونني بصحبتك، ففي الحال يتحول شعورهم بالسحر إلى شعور بالرعب. لكم شعرت بالعار يا أمي، لأنني قد تسببت لك في كل هذا الخجل والعار.. لأنني قد قللت من شأنك بوجودي معك!

أنا لا أفهم لماذا حتى الآن - وبعد مرور كل تلك السنوات من هذه الحادثة - أجد ذلك الباعث الداخلي الغبي ما زال يدفعني نحو البكاء. سامحيني، يا أمي، أعلم أن بكائي لا يشبه بكاء البشر العاديين. لكن من

قال لك إنني كنت يومًا إنسانًا طبيعيًا. لقد حاولت مرارًا أن أعيش كشخص عـادي، أن أجد المعنى في أشياء لا معنى لها. لكنني فشلت. فشلت حتـى في قتـل "كيراكـا"، عـلى الرغم من أنني خططت لكل شيء بمنتهى الدقة كما فعلت مع عشيقك. وقت تنفيـذ الجريمة كان منتصف الليل، عندما كان كل المرضى والممرضات الموجـودون في المـصحة في أسرتهم وقبيل عودة "كيراكا" لحجرتها، بعـد إتمامهـا لمرورهـا الأخـير. كنـت أختبـئ خلف الباب في الممر المظلم المؤدي إلى الحمامات منتظرًا عودتها. وكان الـسلاح الـذي سأنفذ به الجريمة هو "مفك طويل" كنت قد سرقته من "الجـراج" عنـدما كنـا نغـسل سيارتها "الفولكس فاجن" كجزء من برنامج "العلاج بالعمل".

أخطأت في حساب شيء واحد فقط؛ طولي! فقد كنت في حاجة ماسة إلى إضـافة القليل من السنتيمترات لطولي إن كنت أرغب في أن أغمد "المفك" في قلب "كيراكا". أنا أيضًا قد أغفلت حقيقة أن "كيراكا" ليست مجرد شـخص عـادي ولكنهـا المـديرة. عندما انقضضت عليها، أربكها هجومي بعض الشيء لكنـه لم يخفهـا عـلى الإطـلاق، تحركت بمنتهى الرشاقة والمهارة وكأنها كانت على علـم مـسبق بخطتـي منـذ وقـت طويل، وأمسكت بي بيدها، ورفعت جسدي في الهواء ثم ألقتني على الأرض. تمكنتُ فقط من إصابة فخذها.

استطاعت بيـدها الأخـرى، الوصـول إلى إحـدى المكـانس المـسنودة عـلى الحائط، وأوسعتني بها ضربًـا عـلى وجهـي بكـل مـا أوتيـت مـن قـوة حتـى فقدت الوعي. الشيء الوحيد الذي شعرت به هو نافورة الـدم الـدافئ التـي لطخت وجهي وملأت فمي. أمَّا ما تلي ذلك فأنا أتذكره، ولكن بـشكل مـبهم

وغير واضح؛ كان هناك رجل بوليس يسحبني بعيدًا وهـو يوسـعني ضربًـا، وطبيـب يخيط الجروح الموجودة في وجهي دون استخدام مخدر ليتركني بعدها أكثر تـشوهًا مما كنت عليه.. إن كان هذا ممكنًا. ليخرج علينا بعد ذلك أحد القضاة متهكمًا:

- لقد انتهى أمرك أيها القزم! لن تجـد مـا تأكلـه سـوى القـذارة التـي سـتخلفها وراءك!

لو بادر أحدهم بسؤالي هل كنـت حقًـا أقـيم بإحـدى المـصحات وهـل شُـفيت بالكامل، ما كنت لأعلم بماذا أجيبه.

أتذكر بشكل مشوش أنه كان هناك محامٍ يدَّعي بأنه محامي الدفاع عني وكـان يقول في مرافعته إنني ضحية للعنف وللظروف السيئة. أنا لم أهتم مطلقًا بما قال يا أمي، على الرغم من أنني علي أن أعترف بأنني كنت أشعر بالأسف لأنكِ لم تتمكنـي من حضور جلسات المحاكمة. ولكن، عندما أخبروني بعد ذلك بأنـك كنـت بالخـارج خلال عرض قضيتي على المحكمة.. هناك بعيدًا في "بوروفيتس" لقضاء فصل الـشتاء مع عشيقك، شعرت بالراحة لأنك كنت قادرة على إيجاد شيء من الراحـة بعـد كـل تلك الفوضى المزعجة التي تسببتُ لك فيها.

وفي تلك المناسبة، كم كنت أتمنى أن أشكر عشيقك بنفسي عـلى الهديـة القيمـة التي أرسلها لي. والتي كلفته 8 يورو، هكذا يقول السعر المدون على الصندوق، عـلى الرغم من أنني قد ركبت "البازل" الذي أرسـله لي والمكـون مـن 20 قطعـة في بـضع دقائق لأنه كان مخصص للمستويات الأولية.

لكن لا تُقلقي نفسك؛ لأن الأمـر لـيس بهـذا الـسوء الـذي كنـت أتوقعـه. إنهـم يطلقون على هذا المكان "إصلاحية الأحداث" على الرغم من أنهـا تـذكرني بالزنزانـة الحقيقية. فهي ليست بهذا السوء، لقد اكتشفت أن بداخل تلك الإصـلاحية العديـد من أصحاب الأقدار التي تشبه قدري، وأن هناك أولاد يتمتعون بهيئات أفضل منـي قـد مـروا بالمـصائب نفـسها التـي مـررت بهـا. زنزانتـي هنـا تختلـف عـن "الغرفـة الملعونة"، لأنها تحتوي على نافذة.

صحيح أنها مغطاة بالقضبان، لكنها ما زالت نافذة. فما زلت قادرًا عـلى معرفـة الوقت، ويمكنني أن أعرف إذا ما كان الجو مشمسًا، أم ممطـرًا أو إذا كانـت الثلـوج تتساقط بالخارج. يمكنني رؤية النجوم كل ليلـة ويمكننـي كـذلك أن أعـدها بكـسل وأنا أمضغ قطع البطاطس المسلوقة التي يقـدمونها لنـا عـلى العـشاء. وإن مـددت جـسدي قلـيًلا يمكننـي أن أرى العـالم فـيما وراء المؤسـسة. يمكننـي رؤيـة النـاس والسيارات وهي تعبر الطريق. لقد تمكنت من رؤية قمم الأشجار المورقة بـالأمس - والتي أصبحت غير مثمرة الآن -. يخبرنا القائمون على المؤسـسة أن الهـدف الرئيـسي من إقامتنا بهذه الإصلاحية هو قتل الوقت. ليس لدي مـشكلة في ذلـك. يمكننـي أن أعيش في هذا السجن لسنوات دون الشعور بالملل. قـد يعتقـد المـرء أن اليـوم هنـا طويل وممل، لكن في الحقيقة عندما أجمع الأيام التي قضيتها هنا واحدًا تلو الأخر، أجدهم وقد أصبحوا أقصر. وبأنني راضٍ ومسرور.

الطعام حقًا قليل ولكـنهم يزودوننـا بـه بـصورة منتظمـة؛ ثـلاث وجبـات يوميـة بخـلاف الوجبـة الخفيفـة. ولـدينا حـصة تمرينـات رياضـية إجباريـة كل صباح في الفنـاء. هـل تعلمـين أنهـم يقولـون لنـا: "إن العقـل الـسليم في

الجسم السليم". ربما أنجح في تقوية بدني وبناء بعض العضلات. وبالتالي قد أتحسن من الداخل.

ما هي المدة التي سأقضيها هنا؟ حتى بلوغ سن التاسع عشرة من عمري. وبعدها سيتم إجباري على مغادرة هذا المكان. ولكنني سأحاول بطريقة أو بأخرى أن أطيل فترة بقائي هنا. لقد سمعتهم يقولون إنك إن قمت بمهاجمة أحد الحراس في المصحة، سوف تقضي المزيد من السنوات هنا، لكن في هذه الحالة ستقضى المدة الإضافية في السجن الحقيقي. لستِ في حاجة إلى أن تقلقي من عودتي. اطمئني. خصوصًا بعدما أصبحت بعيدة وبأمان عن وجودي الذي لا يُحتمل، لقد جاء دورك أخيرًا في الاستمتاع بعشيقك وبكل تلك الأشياء الصغيرة التي تجعل حياة الإنسان مكتملة.

هل لكِ أن تتخيلي يا أمي؟ في إحدى جلسات المحاكمة، عندما أتى دور المديرة "كيراكا" لكي تدلي بشهادتها، بدت وكأنها تدافع عني، لدرجة أنني أردت أن أطعنها مرة أخرى "بالمفك" لأنها قالت إن السبب الحقيقي وراء ما قمت به هو أن أمي لم تحتضنني بالقدر الكافي. عار عليها! ولم تكتفِ بذلك وحسب، بل لقد تمادت في شهادتها لدرجة أنها ذكرت والدي المزيف.. هذا المخنث عديم النفع، وبأنه هو السبب وراء برودك العاطفي معي. لقد كنت حينها ما زلت أشعر بالدوار بسبب الضرب المبرح الذي نلته على يد رجل الشرطة. وكان فمي متصلب عند الموضع الذي خاطه لي الطبيب بدون مخدر. كل ما استطعت القيام به هو أن أغمغم قائلًا:

- أنتِ لست على حق، أيتها المديرة.

التفتت نحوي، وقد بدت طويلة ومعتدلة البنية وشاحبة بعض الشيء بسبب عدم وضعها لمساحيق التجميل. صاحت أمام القاضي قائلةً:

- أرجو المعذرة، لكنني لم أفهم كلمة واحدة مما قلته للتو، أيها المسكين، كم أشعر بالأسف نحوك.

كم تمنيت لو تمكنت من الرد عليها، وتقيؤ الحقيقة على القناع الذي كانت ترتديه لتخفي به وجهها الحقيقي. ولكن تم سحقي، فما زالت أذناي ترنان وركبتاي ترتعشان بسبب ما نلته من ضرب وركل. لقد بلغت قمة الألم، لم أكن قادرًا سوى على البصق. وحتى البصق لم أكن أمتلك القوة الكافية، يا أمي، لأقوم به، وبالتالي لم تنجح بصقتي سوى في تلطيخ شفتيّ الزرقاوين المتورمتين. لا بد أن هيئتي كانت بشعة، لأن حالة من الصمت سادت قاعة المحكمة بسبب شعورهم بالاشمئزاز عند رؤيتي أثناء اقتيادي من قِبل رجل البوليس وهو ممسك بي من تحت إبطي بمنتهى التأفف والقرف تمامًا مثلما يمسك صائد الكلاب بكلب جربان.

أنا منهك وخائر القوى، يا أمي. لقد حدثت العديد من الأشياء مؤخرًا. إلا أنني أشعر بأنني وجدتُ راحتي هنا وبأنني أفضل حالًا الآن. فلم تعد الهلاوس المزعجة والأفكار السيئة تراودني تقريبًا. وأستيقظ من النوم مرتاح البال. وأؤدي التمرينات الصباحية. وآكل بانتظام.

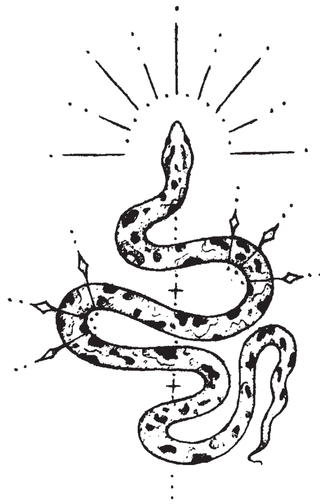
لقد وعدتني بأنك ستقومين بزيارتي. أرجوكِ لا تسيئي فهمي، فأنت لستِ مجبرة على القيام بذلك بصورة منتظمة. فحبك لي يدفئني من بعيد. وكل ما أحتاج إليه هو أن أفكر فيكِ وساعتها سأتمكن من استنشاق

عبيرك الرقيق وأنا أشعر بمنتهى السعادة؛ تمامًا كسعادة نحلة طنانة قبيحة مفتونة بعبير "زهرة الملكة". فأنا مازلت أحتفظ بصورتك داخلي وأينما كنت أنا وأينما ذهبتِ أنتِ فسأحملك دومًا بداخلي.



القصة الثانية

الثعبان الصغير





"من الأفضل ألا تُروى أحداث هذه القصة الخيالية

بجوار ماء راكد".



عثر الرجل على ثعبان صغير وحيد. والآن وبعد مرور خمس سنوات من حياتهما معًا، شعر الاثنان بالدرجة نفسها من الثقة في بعضهما البعض وكأنهما أقرب الأقرباء. كان الثعبان الصغير يتناول الطعام من يد الرجل دون أدنى شعور بالخوف، ويرافقه خلال جولاته في الغابة، ويغفو في جيب معطفه المصنوع من الفرو الذي ما زال يشعره بالدفء على الرغم من اهترائه. أو يزحف خلفه ليستمتع بأشعة الشمس الدافئة. لكنه في ليالي الشتاء كان ينام طويلًا في هدوء. ملتف حول نفسه داخل عش صنعه الرجل له خصيصًا من الأغصان والطحالب والأوراق ووضعه بجوار المدفأة.

كان جلد الثعبان منقوشًا ويبلغ طوله عشرة سنتيمترات على أقصى تقدير. وكان يستمتع كذلك بتسلق ذراع الرجل، وهو يطلق فحيحه في سعادة. ويستمتع كذلك بالاستلقاء في مكانه في انتظار الفريسة التي تكون في المعتاد إحدى الحشرات؛ ليبدأ بعد ذلك في تأدية رقصة الصيد الخاصة به حولها.

بنهاية العام الثاني من علاقتهما، نجح الرجل بالفعل في تدريب الثعبان على فهم معنى صافراته. حيث عكف طوال تلك المدة على محاولة تعليم الثعبان الصغير كيفية التمييز بين الصافرة القصيرة الحادة والتي تعني

"تعال!" والصافرة الطويلة الممتدة والتي تعني "لقد أحضرت لك الطعام"، والـصافرتين اللتان لهما الطول نفـسه كانتـا تعنيـان "ارفـع رأسـك وجـسدك لأعـلى"، والتـي مـا إن يسمعها الثعبان الصغير حتى يشرع على الفور في رفع رأسه وثلـث جـسده مـن عـلى الأرض، ويبدأ في التمايل يمينًا ويسارًا.

كان الرجل في أسعد حالاته عندما أحضر له الثعبان الـصغير "الغليـون". لا شـك في أن المهمة كانت معقدة، لأنها كانت تتكون من صـافرتين: إحـداهما كانـت قـصيرة والأخـرى طويلة، الأمر الذي تطلب من الثعبان الصغير إنجاز عدة مهـام في آن واحـد؛ أولًا أن يعـثر على "الغليون"، ثانيًا أن يلتقطه بأسنانه، ثالثًا وأخيرًا أن يحـضره للرجـل. مـن الطبيعـي في مثل هذه المهمة أن يترك الثعبان الصغير بعضًا من لعابة الرطب على يد "الغليون" نتيجـة لإطباقه عليه بأسنانه. وعندما بدأ الرجل في تدخين "الغليون"، شعر وكأنه يمـتص شـيئًا مـا لين مع التبغ.

على مدار الخمس سنوات التالية، وعلى الرغم من علاقـتهما الرائعـة، بـدأت سحابة الوحدة تحط على الرجل بثقلهـا مـن جديـد أكـثر فـأكثر. اكتـشف وهـو يداعب جسد ثعبانـه الـصغيرة المتعـرج، أن الخطـأ يكمـن فيـه هـو. قـد يكـون البعض قد أساء إليه وقد يكون بعـض النـاس أشرارًا غـير عـادلين معـه، لكنـه في المقابل لم يكن لديه الحق في أن يغضب منهم طوال تلك الفترة. وما كـان لـه أن يسمح لنفسه بأن ينسى أيام طفولتـه وشـبابه الرائعـة التـي قـضاها بيـنهم. وأن هناك من أحبه بصدق لكن الرجل أساء إليه ولم يبادلـه ذلـك الحـب. لأنـه كـان يحب نفسه وفقط.

وبالتالي، قرر الرجل أن يعود إلى المدينة مرة أخرى. ارتدى معطفه، ووضع الثعبان الصغير في جيبه، وما إن اقترب من المدينة وبدأ برؤية بدايات المنازل، أطلق ساقيه للريح. ولكنه عندما وصل المدينة عاوده ذلك الشعور بالنفور والذي سبق وشعر به عدة مرات من قبل عندما هبط إلى المدينة من أجل الحصول على الطعام. راوده الشعور نفسه بالقلق الذي انتابه من قبل. فحياة المدينة لا تروق له وتكاد تخنقه.

بدأ بالفعل يتأثر نفسيًا بنظرات المارة المذهولة والمتهكمة له بسبب هيئته الغريبة. وبسبب منظر شعره المصفف على جانب وجهه ولحيته الكثة ومعطف الفرو القديم المهترئ الذي يرتديه، وذراعيه الباديتين من أكمام معطفه كالمجارف الصدئة، وردود أفعاله المنفعلة والمضطربة التي يصدرها عند سماعه لأي صوتٍ عالٍ. تأمل المدينة حوله.. نظر في عينيها باحثًا عن نفسه. فوجد أنه بهيئته هذه ينتمي لطائفة الشحاذين الزاحفين بحثًا عن الطعام داخل صناديق القمامة تمامًا مثل الكلاب الجائعة.

بمجرد وصوله لعتبة أول فندق صغير صادفه في طريقه، بدأ في الارتجاف كرجل مخمور، وفي اللحظة نفسها التي قرر فيها الدخول إلى الفندق، أخرج الثعبان الصغير من جيبه. أحدث الثعبان صوت حفيف وهو يزحف على الرصيف بسرعة البرق واختبأ داخل أحد الشقوق الموجودة في حائط أحد المنازل القريبة. هناك، في داخل أحد الصخور، هدَّأ من روع نفسه. لأن شعور الرجل بالقلق والتوتر الدائمين قد أزعجه بشدة. وقد استشعر بفطرته أن الظلام قد يوفر له الحماية. وبقي هناك ينتظر.

في داخل الفندق الصغير، جلس الحارس وخمسة أو ستة زبـائن عـلى الأكـثر، جمـيعهم من الرجال. كانوا مشغولين بالاستماع لإحدى مباريات كرة القـدم المذاعـة في الراديـو. وكـان صوت المعلق الرياضي يشبه لحد كبير صوت رجل مخنَّث، يصيح بصوت عالٍ محـدثًا جلبـة كبيرة وضوضاء على خلفية من الأصوات الـصاخبة الـساخرة والمـستهزئة المـصحوبة بـسباب وشتائم هذا الجمع من الرجال الذين تفوح منهم رائحة العرق، مما دفع الرجل إلى الجلوس على أبعد طاولة. وانكفأ على نفسه في الكرسي، وقد غطى أذنيه بيديه حتى هدأ تمامًا.

في تلك اللحظة، لاحظ صـاحب الثعبـان وجـود رجـل آخـر يجلـس وحـده عـلى إحدى الطاولات المجاورة لـه. بعيـدًا عـن بـاقي الجالـسين الـذين يتـابعون المبـاراة بحماس وشغف، كان الرجل يحدق بهدوء عبر النافذة للشارع. وكان هناك زوج من العكازات تم إسنادهما على الكرسي المجاور له. التفـت الرجـل فجـأة نحـو صـاحب الثعبان وابتسم له وقال:

- يا له من يوم لطيف.

استمر الرجل في الاسترسال في حديثـه الـذاتي. تحـدث عـن قـدوم الربيـع، وعـن التلوث في المدينة، وعن استحالة التعامل السليم بين النـاس. شـعر الرجـل بـالمرارة، وظهر ذلك واضحًا في احتقاره لتلك الحشود البشرية.

في البداية، أومأ صاحب الثعبان برأسه له دليلًا على موافقته له في الرأي، ليغامر بعد ذلك ويقول "نعم" مرة أو مرتين، وعبارة "بالطبع" و"هـذا هـو رأيـي بالـضبط" أحيانًا. ولكن عندما تطرَّق الرجل لمشكلة الـصداقة، قـاطع صـاحب الثعبـان حـواره بمنتهى الهمة والعزم. وتساءل:

- أين يمكن أن يجد المرء الإخلاص؟ فالناس أصبحوا شديدي الأنانية! ولا يهتمون سوى بمصالحهم الشخصية.

دونما قصد، اقترب الرجلان من بعضهما البعض. ومال الرجل صاحب الثعبان جهة الطاولة الخاصة بالرجل الثاني، وقد اقترب الرجل الآخر منه هو الآخر. وفجأة هتف صاحب الثعبان وقال:

- لدى شيء أريد أن أريه لك. صديق حقيقي لي.

وعندما أبدى الرجل موافقته، والتي ظهرت في نظرة استحسان ألقى بها على صاحب الثعبان، تجرأ الرجل صاحب الثعبان وبدأ يصفر للثعبان الصغير بصافرة قصيرة حادة؛ الأمر الذي أثار ضيق عشاق ومتابعي مباراة كرة القدم الجالسين حول الراديو.

لم يستجب الثعبان الصغير لندائه في البداية. ذلك لأن صاحبه لم يدربه قط على دخول حجرة مكتظة بالبشر. ولكنه، على العكس، كان يعلمه دومًا أن يحترس من الناس. لذا فقد فضَّل الثعبان الصغير البقاء داخل الشق.

- استمع إلي! أطعني.. اخرج! هذه المرة فقط!

صفَّر له ثانية، كانت نغمة صافرته يائسة. جلب له الصفير عاصفة من الشتائم من قِبل الزبائن الآخرين.

- اصمت!

صرخ مالك الفندق في وجه الرجل:

- ألا ترى أننا نستمع إلى المباراة أيها الأحمق!

الرجل الجالس على الطاولة المجاورة هرش خلف أذنه. وقال:

- آسف. لكنني لا أفهم شيئًا.

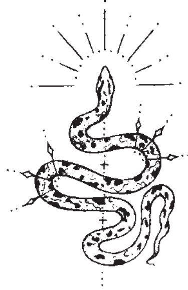
في تلك اللحظة نفسها، ظهر من تحت عقب الباب الأمامي، رأس ثعبـان صـغير. ملأ الدفء صدر صاحب الثعبان، وقال:

- ها هو!

همس الرجل:

- إنه قادم.

لكن في اللحظة التالية، وبحركة بطيئة، تبدلت تعبيرات الفضول المرتـسمة عـلى وجه الرجل وتحولت إلى شعور بـالتقزز والاشـمئزاز وامتـدت يـده نحـو عكازيـه في محاولة للغدر بـــ.



القصة الثالثة

الرجل ذو الجناح الواحد





"يجب أن تُروى أحداث هذه القصة الخيالية خلال فترات الاستراحة

من الإثنين وحتى الأربعاء".



شعر الرجل ذو الجناح الواحد بأن هذا الصيف هـو أحـد أكـثر فـصول الـصيف التي مرت به كآبة.

خلافًا لما هو معروف عن أجنحة الملائكة، لم ينبت جناح الرجل من ظهره، لكنه، عوضًا عن ذلك، نبت في موضع ذراعه الأيمن، وبمخالفة طبيعة أجنحة الطيـور، كـان لجناحه كوع مرن يتكئ عليه الآن وهو جـالس عـلى صـخرة كبـيرة، وبعينيـه نظـرة حائرة ومتحجرة كأنه جالس أمام البحر يتأمله، على الرغم من أنه كان جالـسًا عـلى صخرة أحد الجبال أمام أحد الطرق الذي تم تمهيـده عـن طريـق إزالـة بعـض مـن الأشـجار. سـيطر عـلى الرجـل إحـساسٌ بـالفراغ الـداخلي وعـدم جـدوى أي شيء. يتزايد هذا الشعور لديه في فـترات مـا بعـد الظهـيرة مـن كـل يوليـو بـسبب تزايـد تصاعد الروائح الحمضية العفنة من المدينة الملتهبة الموجودة بالأسفل. بسبب تلـك الكتلة اللزجة من السيارات والبشر التي تزحف وتتمدد في جميع الاتجاهات لتغزو حتى أضيق الحارات والممرات. جلس الرجـل ذو الجنـاح الواحـد عـلى إحدى الكتل الصخرية الكبيرة الموجودة في منتصف الطريق المؤدي إلى جبـل "فودنـو" نـاظرًا إلى الـسماء، وعينـاه تتتبـع إحـدى الـسحب وهـي تتحـرك

وتنتقل من شكل لآخر كمثيلاتها من السحب غير المستقرة. فكر في نفسه: "انظر إلى تلك السحابة! يمكنها أن تفعل كل ما تريد أما أنا..".

في تلك اللحظة، ظهر أمامه فجأة طائر عجيب، نسر ضخم يشبه تلك النسور التي يُحكى عنها في القصص الخيالية، وقد حجب بجناحيه الكبيرين ضوء الشمس والسحابة غير المستقرة. هبط النسر الضخم لارتفاع متر واحد عن الأرض، وثبَّت نفسه في الهواء وظل يحدِّق مباشرةً في وجه الرجل ذي الجناح الواحد.

- ما الذي تريده مني؟

تساءل الرجل ذو الجناح الواحد وهو يجلس في ظل الطائر العملاق الذي غطَّاه تمامًا.

أجاب النسر العملاق على سؤاله بسؤال:

- وأنت؟ لماذا لا تزال موجودًا هنا على الأرض؟

- ألا ترى أنني بجناح واحد؟ ما الذي يمكنني أن أفعله وأنا كسيح هكذا؟ لا يمكنني حتى أن أستمني دون يدي اليمنى. وأنت؟ لماذا جئت إلي؟ هل سبق وتواصلت معك؟

- لقد جئت إلى هنا كي أخبرك بشيء غاية في الأهمية. قد تجده مزعجًا. ولكن ليس هناك من شيء يمكنني فعله حيال ذلك. أنا ابن عمك.

- ماذا؟ ما هذا الذي تقوله؟

- حسنًا، حسنًا. لستُ بأقرب أبناء العمومة إليك. ربما. فأنا أنحدر من سلالة تبعد عنك أربعة أو خمسة أجيال. ولكننا نتشارك في الأصول نفسها. فجدنا نحن الاثنين هو النسر الرمادي. أبوك، والذي هو بمثابة عم لي؛ قام ذات مرة بصفع أمك بجناحه فأصبحت حاملًا فيك.

- حسنًا؟ لنفترض أن ما تقوله هو ما حدث بالفعل، فما الذي يهمني أنا في الأمر؟

- لأنك أنت الوحيد الذي تجسد فيك الاثنان معًا ليصبحا شيئًا واحدًا؛ الطائر والإنسان. بالإضافة إلى كونك الابن الوحيد للنسر الرمادي الذي هو ملك كل النسور. وهو أيضًا من طلب مني وهو على فراش الموت أن أحضرك إليه. إنه يريد أن يراك.

حينئذ، صعد الرجل ذو الجناح الواحد على ظهر النسر ليحلق به في السماء. طار الاثنان أسرع من الريح وفي لحظة واحدة وجدا نفسيهما وقد مرا فوق الكثير من الجبال، والبحيرات، والأنهار. لم يتوقفا عن التحليق حتى وصلا إلى القمة الثلجية للجبل الشاهق.

كان هناك عش فخم ومهيب على قمة الجبل الشاهق. وفي منتصف العش يقف عرش عظيم ومدفأه بيضاء اللون ذات ألسنة من اللهب تعانق بعضها البعض في ضوء أبيض بصورة غريبة. وعلى الرغم من كل هذا الثلج والجليد المحيط بالعش، إلا أن العش كان دافئًا من الداخل بشكل رائع. هذا العش الفخم هو بيت النسر الرمادي.

جلس النسر الرمادي، أو بالأحرى جلس منهكًا من شدة الإعياء على قمة العرش. حتى ألسنة اللـهب المتصاعدة من نيران المدفئـة لم تـستطع أن تخفـف مـن وطـأة الحمى التي أصابته وأنهكت جسده الملكي الذي كان فيما سـبق قويًـا. وجَّـه النـسر حديثه للرجل ذو الجناح الواحد:

- بني، الليلة سوف أرحل إلى أرض أجدادي. أنا بالطبع لا أتمنى الرحيل ولكـن لا مناص من ذلك. لقد حانت ساعتي. أنا لم أشأ أن أزعجك مـن قبـل، كـما تعلـم. أمـا الآن وقد اقتربت ساعة رحيلي، أريد أن أطلعك على السر الكبير الذي احتفظـت بـه لنفسي. نعم، أنت ابني!

- لقد فهمت ذلك جيدًا. لقد أصبح الأمر واضحًا وجليًا بما فيه الكفاية.

- لكن هناك شيئًا آخر! العرش! فبمجرد وفاتي سيصبح عرش النسور خاليًا. وأنت الوحيد الذي يحق له اعتلاء هذا العرش. إنه ينتظرك. فاجعل الطيور الموجـودة عـن يمينـك والبـشر الموجودين عن يسارك يعاونوك في اتخاذ القرار.

- لستُ أدري ماذا أقول! لقد فاجأتني بقولك هذا ولم أكن مستعدًا له.

- يجب عليك أن تقرر! فأنا أزيد ضعفًا أكثر كلما مر الوقـت ويجـب أن أحـصل منك على إجابة شافية. هل ستبقى هنا أم ستعود لكي تعيش بين الناس. آه.. هنـاك شيء أخير. كيف حال أمك؟

- إنها على ما يرام بالنسبة لسنها.

- ما هو عمرها الآن؟

- خمسة وسبعون عامًا.

- هل كبرت إلى هذا الحد؟ أنا أتـذكر كـل شيء، كأنـه حـدث بـالأمس القريـب، اللحظة التي لمستها فيها بجناحي. هل هذا ما يطلقون عليه "مرور الوقت"!

فشل الرجل ذو الجناح الواحد في ملاحظة أن والده كان يحـاول أن يمـزح معـه. فهو ما زال مرتبكًا بسبب ما يحدث له، وأفكاره ما زالت مشوشة ومتخبطة وعينـاه متسعتان من هول الصدمة.

وبصعوبة شديدة استطاع النسر الرمادي رفع رأسه الثقيل موجهًا خطابه للرجل ذي الجناح الواحد للمرة الأخيرة. وقال:

- أخبرني يا بني، هل تنتوي أن تعتلي عرشي؟ هل ترغب في أن تـصبح ملـك كـل الطيور؟ من الجيد أنني أرسلت في طلبك يا بني.

- أنا.. أنا...

تلعثم الرجل ذو الجنـاح الواحـد. لكـن النـسر الرمـادي لم يعـد بإمكانـه أن يسمعه بعد الآن لأنه ببساطة قـد رحـل عـبر الـشق الموجـود في الحـائط الـذي يفصل ما بين العالمين. وأصوات هذا العالم لا يمكنها أن تصله بعد الآن لأن الشق قد أُغلق وراءه.

وبهذا أصبح الرجل ذو الجناح الواحد ملكًا لكل النسور دون رغبة حقيقية منـه وقد هلل له مجلس النسور بأكمله.

- كيف يمكنني تولي شؤون الحكم وأنا حتى لا أستطيع الطيران والتحليق وحدي في السماء؟

تعجب الرجل، لأن جلوسه على العرش الحجري ذكره فجأة بجلسته على الصخرة الضخمة الموجودة على جبل "فوندو" التي تسلقها ليهرب من صخب المدينة قبيل وقوع تلك الأحداث الغريبة التي مرت به مع أبيه.

خطرت له فكرة، بما أنه أصبح ملكًا للطيور وأصبحت كل تلك الجحافل من النسور تحت إمرته. ما الذي يمنعه من أن يتولى شئون الحكم، وهو أمر لم يكن صعبًا على الإطلاق. كما أنه سيأمر بصنع جناح خفيف وقوي بأقصى سرعة ممكنة؟ وسوف يتم تثبيته برفق وبمتانة في الجانب الشمال من ظهره. وبالفعل تم تنفيذ أوامره في التو!

لم يعد بعد الآن الرجل ذو الجناح الواحد لكنه أصبح ملكًا متوجًا بجناحين. أو بالأحرى، جناحين وذراع؛ فذراعه الأيسر بقي وحيدًا ومميزًا في عجزه بنوع خاص من الجمال، سوف يخصصه للقيام فقط بكل الأعمال النبيلة. مثل حمل الصولجان أو تصفح كتب السفر المزينة بالنقوش.

إن البقع الموجودة على ظهر الرجل والتي نبت منها جناحيه الطبيعي والصناعي، ما زال يشعر فيها بنبضات ألم صغيرة تمنحه متعة جسدية كبيرة.

"الآن يمكنني التحليق بحرية!" صاح الرجل وقد انطلق يحلق في السماء.



نعم! كما لو أن كل الطاقة التي سبق وسُلبت منه قد عادت إلى جسده من جديد. أثناء استنشاقه لهواء المرتفعات المسكِر! بدأ يتخيل أنه يغزو السماوات برغباته، وبأنه بدأ يحيا حياته بشكل جديد يختلف تمامًا عن كل ما سبق وعرفه في حياته من قبل. تتدفق مياه أنهار الجبال نحو الأسفل، لتنساب عبر وديان الغابة. البيوت، وحتى المباني الكبيرة، ظهرت في حجم (المكعبات) التي يلعب بها الأطفال. وبينما هو يحلق إذ به يتحول إلى النسر الملك المملوء بالعزة والذي يضحك بصوتٍ عالٍ وبعظمة بين السُحب ها ها ها ها!



هبط أولًا كي يزور أمه. بعيدًا عن كونها كانت مندهشة، إلا أنها بدت مرتاحة لرؤية ابنها في هيئة نسر. قالت له:

- لست بحاجة لتفسير أي شيء لي! أنا أتفهم كل شيء!

أم الرجل، التي تبلغ من العمر ثمانين عامًا وليس خمسة وسبعين كما سبق وقال قد أصبحت أخيرًا فخورة بولدها. وقد ارتدى جناحيه كمعطف ملكي فوق ذراعه الأيسر:

- أمي، أعلم أنني لم أسبب لكِ سوى المشكلات طوال حياتي، بسبب ارتباكي وعُقدي. أما الآن وبعدما أصبحت قويًا وواثقًا من نفسي، أخبريني هل لكِ من أمنية محددة يمكنني أن أحققها لكِ ولو لمرة واحده في حياتي؟

كانت أمه تتميز بعمق التفكير. فضَّلت الصمت في البداية لدقيقة أو أكثر، لتتكلم بعد ذلك بسرعة:

- بني، صحيح أنك لسنوات كنت أخرق وفظ وضائع وقد تسببت لي في الكثير من التعاسة. وكان علي الاستماع إلى العديد من الشائعات عنك من أصدقائك، وأن تلك الشائعات تسببت في بقائي مستيقظة وقد فارق النوم عيني لليالٍ كثيرة. ربما لم يكن الخطأ خطؤك في كل ما مررنا به. لكن هكذا هو السبيل الذي قرره لنا القدر لنسير فيه. عفا الله عمًّا سلف. عندما أنظر إليك الآن، وأنت وسيم هكذا، تنهمر الدموع من عيني من شدة الفرح والسعادة.

-لا تبكي يا أمي!

- لقد كبرت وأصبحت نوعًا ما عاطفية. كل شيء يمر. دعني الآن أفكر في الأمنية التي سبق وعرضت أن تحققها لي.

- أخبريني يا أمي، هيا أخبريني!

- أنا أعرف. في الليلة الماضية أو التي سبقتها، لستُ أدري بالتحديد، حلمت بفتاة. آية في الجمال. تعيش بالقرب من شاطئ بحيرة الجبل هناك في الأعالي التي تُغطى فيها الطحالب بطبقة من الجليد يصل سمكها لخمسة عشر سنتيمتر في فصل الشتاء.

- من الملائم بالنسبة لي أن تسكن الفتاة الأعالي هكذا وخصوصًا بعدما حصلت على جناحين وأصبحت أميل بشكل إيجابي نحو المرتفعات.

- نعم، أنا أصدقك تمامًا فيما تقول، لكن كان هناك بقية للحلم لم أخبرك بها بعد. بعض المشكلات الصغيرة. دعني فقط أتذكر ما هي...

- لا تجهدي نفسك يا أمي. مهما كان هذا الشيء فلسوف أقهره.



- الرجل حتى وإن كان ذو جناحين فعليه أن يسير في الدرب الذي رسمه له القدر، وأن يرتحل فيه دون مراوغة، وعليه أن يسير فيه حتى النهاية لكي يفهم دوره الحقيقي في العالم.

بعد أن لخصت السيدة وضع ابنها في جملة موجزة ومختصرة، الرجل ذو الجناح الواحد سابقًا وملك النسور حاليًا، أصدر أوامره لكل الطيور بالبحث في كل مكان عن الفتاة ذات الجمال الآخاذ التي تعيش بالقرب من شاطئ بحيرة الجبل العالي. حلقت كل النسور على الفور تفتش في الأركان الأربعة للعالم ولم يشأ بطلنا أن يظل وحيدًا ليتملكه الشعور بالملل في عشه، لذا قرر هو الآخر المشاركة في البحث بنفسه. لقد كانت رحلته مرهقة وطويلة، فبعد مرور أسبوع كامل من الطيران، ومن موقعه فوق قمة الجبل الشاهق في وقت الظهيرة، رأى بحيرة نظيفة ونقية ذات لون أزرق غامق بها ثلاث بجعات يستحمون وقد تركوا ثلاث فساتين على الشاطئ، "كيف يكون هناك ثلاث بجعات على مثل هذا الارتفاع؟ وما الذي تفعله تلك الفساتين الثلاثة هنا؟".

لقد كان له كل الحق في التعجب والتساؤل. قرر أن يختبئ خلف شجرة صنوبر مغطاة بالثلوج ليختلس النظر إليهم. وإذ به يرى إحدى البجعات تهز ريشها وتبدأ في التحول إلى فتاة جميلة. ترتعش من شدة البرد،

لتذهب مسرعة لترتدي فستانها الذهبي وتهرب عارية القدمين على الثلج ناحية أحد الأكواخ الحجرية.

أما البجعة الثانية فقد خرجت هي الأخرى من البحيرة وكررت بالضبط ما فعلته البجعة الأولى. وتحولت إلى فتاة جميلة وكما توقع هو، ذهبت مسرعة لترتدي فستانها الفضي وجرت في إثر أختها.

وقبل أن تسبح البجعة الثالثة كي تخرج من البحيرة، تسلل ملك الطيور واختبأ خلف شجرة صنوبر واستولى على الفستان الأبيض الثالث. تملك البجعة الأخيرة الرعب وقررت العودة إلى البحيرة ونادته من داخل البحيرة بصوت عذب ورقيق:

- هلّا أعدت إلي الفستان من فضلك؟

-حسنًا. اخرجي إلى الشاطئ لتأخذيه. سوف أعلقه على أحد فروع شجرة الصنوبر وسأنسحب خلف الشجرة.

فكرت الفتاة البجعة وقررت بينها وبين نفسها أنه بمجرد أن تمسك بالفستان ستهرب مسرعة.

في اللحظة نفسها فكر الملك النسر بينه وبين نفسه أنه بمجرد أن تقترب الفتاة من فرع الشجرة كي تأخذ فستانها، سوف تصبح ملكه!

خرجت الفتاة البجعة مـن البحـيرة وتوجهـت بـسرعة كبـيرة نحـو فـرع شـجرة الصنوبر المعلق عليه فستانها الأبيض. لقد كانت سريعة حقًا لكن ملك النسور كـان أسرع. فقفز أمامها مباشرة وأمسكها بقوة وضمها إليه.

في تلك اللحظة بدأ جسدها في التحول؛ في البداية سقط الـريش الموجـود حـول رقبتها تاركًا عنقها الأبيض المعطر عاريًـا، وبعـدها بدقيقـة، داعبـت أنفـه ضـفائرها الشقراء الراقصة. ليكتشف فجأة أن الجسد الذي كان يلمسه لم يكـن جـسد بجعـة بل جسد امرأة بشرتها تلمع بصورة أكثر حميمية من ريشها.

تراجع خطوة للخلف للتأكد من أن ما يراه حقيقيًـا. بـدأ جـسدها بالتـدريج في التعري أمامه كاشفًا عن جمالها الفتَّان شيئًا فشيئًا، وتزايدت إثارته وتضاعفت. كـان يعرف أنه لا تزال هناك بعض المواضع الفاتنة والجوانب المظللة بالريش التي سـيلي الكشف عنها. هل يتخيل ما يراه أم لون عينيها المخمـلي أغمـق مـن لـون شـعرها، أصبحت الفتاة أكـبر حجـمًا وجـسدها أكـثر غـضونة وهـو مـا زال يحتـضنها نـصف احتضانة بواسطة جناحه الأيسر القديم. بدأت حلمته المتصلبة تحتك بثـديها الـذي أصبح كامل الاستدارة على شكل برتقالة؟ والريش الموجود بجناحيـه وهـو يحتـضن جسدها العاري المبلل تفاعل معها بصورة أقوى من جلد يديه، حيث انتفش ريـشه كريش ديك هائج.

تأثره بالمشهد أفقـده القـدرة عـلى متابعـه الكلـمات التـي نطقـت بهـا بـصوت منخفض:

- هلّا تكرمت بتمرير الفستان لي؟

في تلك اللحظة فقط لاحظ أنها كانت ترتجف من شدة البرد. فأعطاها الفستان لترتديه فرفعته فوق رأسها كي ترتدي كاشفة بذلك عن كامل جمالها الأنثوي؛ خصرها النحيل، وفخذيها الأبيضين المستديرين وكل المناطق المثيرة الموجودة بجسدها. استغرق الأمر منه بعض الوقت كي يلملم شتات نفسه، ويستوعب ما تقوله.

ما إن ارتدت الفتاة فستانها الأبيض، حتى بدأت في سرد أحداث قصتها. التي بدت مألوفة، هل من روت له هذه القصة كانت أمه أم شخص آخر أكبر منها سنًا؟

"إليزا"، هذا هو اسم هذا الكائن الرقيق، هى وأخواتها البنات قد انحدروا من أصول نبيلة وكانوا جميعًا ضحايا للسحر الأسود الذي تمارسه زوجة أبيهم. لقد كانت زوجة أبيهم ساحرة قديرة واستطاعت بكل سهولة أن تسحر عقل أبيهم الساذج. وفي ظهيرة أحد الأيام بينما كان أبوهم بعيدًا، قامت بإلقاء قميص مسحور على كل واحدة من الفتيات لتحولهن بعد ذلك إلى بجعات. فطاروا بعيدًا كي يعيشن بجوار تلك البحيرة الموجودة على قمة الجبل الشاهق حتى لا يشهد أحد معاناتهن. ليقضين بعد ذلك سبع سنوات من أعمارهن في هذا المكان كبجعات. ولا يمكنهن استعادة أجسادهن البشرية سوى ساعة واحدة عند الظهيرة ليعودوا بعدها بقية الوقت كالطيور.

- وأنا كنت كالساذج وأنا أهفو بشدة للحصول على جناح آخر.

خرجت الكلمات من فمه سريعًا ودون أن يقصد، لكن "إليزا" لم تلحظ ذلك لأنها كانت منهمكة في سرد أحداث تاريخها المحزن. ولم تسمع مقاطعته بصورة صحيحة:

- نعم، نعم أنا أشتاق بشدة للعودة لحالتي الأولى. هناك شيء واحد يمكنه أن ينقذنا، لكن مخلصنا مقدر له أن يخوض غمار الكثير من المتاعب في سبيل ذلك.

- أخبريني كيف!

- لستُ أدري إن كان لائقًا أن أقول هذا الكلام.

- لائق أم غير لائق.. لا يهم؛ أنا أريد فقط أن أسعدك؛ وأسعد نفسي.

- حسنًا سيكون عليك أن تعدني بألا تضحك أو تنطق بكلمة لأي شخص لمدة عام كامل.

- هذا ليس بالأمر الهين. هذا صحيح. ولكن إن كان هذا هو المطلوب فليكن؛ لا ابتسامة ولا كلمة واحده ستنسل من بين شفتي. قد لا تتفهم نسوري هذا الأمر في البداية، لكنني سأتدبر الأمر بطريقة ما. وإلا، فكيف يعيش من يعانون الصمم؟

- أنت تضحي بالكثير من أجلي. لكن للأسف هذا ليس كل شيء. عليك أن تتعهد بإنجاز مهمة أخرى صعبة.

- أنا لا أيأس أبدًا. ولا سبيل للتراجع الآن. وأنتِ، أنـت تبـدين لي كـشخص غايـة في الرقة والحساسية. وأنا أحبك أكثر بسبب ذلك.

- إذًا سـأخبرك. في الوقـت نفـسه الـذي سـتكون أنـت محـروم فيـه مـن الكـلام والابتسام، عليك أيضًا أن تقوم بغزل ثلاثة قمصان لي ولإخوتي البنات.

- أغزل ثلاثة قمصان؟ لقد فاجأتني بهذا الطلب. فأنـا لم أقـم بـأي مـن الأعـمال التي تقوم بها النساء في حياتي من قبل. فالرجال لا يغزلون القمـصان، أنـتِ بـالطبع تعرفين ذلك.

- هناك شيء آخر أريد أن أخبرك به. يجب أن تغـزل تلـك القمـصان مـن نبـات القراص. هل تدرك الآن حجم الإغراءات والاختبارات التي يجب عليـك أن تخوضـها كي تنقذني أنا وأخواتي من هذا السحر اللعين؟

- "إليزا" أنت بالفعل روح عاطفية ورقيقة جدًا. أنـا لا أسـتطيع أن أتفهـم مثـل تلك التضحيات. ربما لأنني كنت طفل وحيد.

- هذا يُعد إحدى عادات شعبي. فطبقًا لأساطيرنا؛ فإن هذا العـالم قـد خُلـق عن طريق الغزل. إبر الغزل الإلهـي خلقـت بـصبر وأنـاة كـل تلـك الجبـال ومـا تحويه من بحيرات مقدسة وقممها المغطاة بالثلوج. وكل تلك الغابات الخضراء، وكذلك الكرنب الملفوف والتـوت الـبري، والبطاطـا، والبقـر، والـذئاب، والنـسور بالطبع.

- النسور؟

- نعم، كل الطيور والحيوانات تمت حياكتهم بالغزل الإلهي.

- ماذا عن البشر؟

- نحن جميعًا متصلون ببعضنا البعض عبر خيوط الغزل الإلهي. العالم بـأسره تم غزله بواسطة خطوط غير مرئية؛ الغرض منها هـو تحقيـق التـوازن: التـوازن بين ما هو خارجي وما هـو داخـلي. مـا بـين الطـيران والكهـف، ومـا بـين الـذكر والأنثى.

- فالنساء يبقين ألبستهن بيضاء بغسلها في ينابيع وبحيرات الجبل الباردة النقية. لكن...

تنهدت "إليزا" وأكملت:

- إن الساحرات مثل زوجة أبي تهاجم وتحاول فـك هـذا التـوازن المحـاك بدقـة للعالم. لتتسبب في تعقيد تلك الخيوط الخاصة بالغزل المقدس ونجحـت في تحويلنـا إلى بجعات.

- وفقًا لكلامك هذا فإن هناك ساحرة أو ما شابه ذلك قد تدخلت في حالتي أنـا أيضًا.

كلما روت "إليزا" أحـداث قـصتها، كلـما ازدادت حمـرة وجنتيهـا بـسبب الإثارة.

- لكنك.. هذه الهيئة الخاصة بك. كيف يمكنني أن أعبر عن ذلك؟!! هذا المظهـر الذي أصبحت عليه.. يجعلك تبدو أكثر قوة ورجولة.

صمتت قليلًا ثم أكملت:

- آه، يا عزيزي، أنت ستضحي حقًا بالكثير من أجلي؟ ومن أجل سعادتنا المستقبلية؟ لأنه عندما تقول "نعم" عليك أن تبقى صامتًا لمدة عام ولن تكون قادرًا على الابتسام وعليك أيضًا أن تقوم بغزل ثلاثة قمصان من نبات القراص.

رفعت "إليزا" ثدييها اللذين يشبهان ثمرة البرتقال، ليبدوان أكثر إثارة وجاذبية وهما تحت فستانها المبلل.

- كم أرغب في أن أصدق أنك ستنجح. أنا آسفة لأنني أجد نفسي مضطرة لأن أسألك هذا السؤال؛ هل لديك ذراع واحدة فقط؟

أمسك بها فجأة من عند الكتف بواسطة ذراعه الأيسر الضعيف.

- هذا قد يبدو فظًا بعض الشيء.. ولكن، لماذا لا يمكننا أن.. أنتِ تعرفين.. إن كان ممكنًا.. فالحياة تمر بسرعة كما تعلمين، لماذا لا نتعرف على بعضنا البعض بصورة أفضل.

- لا تتسرع. سيُتاح لنا الوقت الكافي للقيام بكل ما نريد يا عزيزي. إن نجحت خطتنا، سوف تختبر بنفسك متع وملذات لم ترها ولم تحلم بها من قبل. أما الآن فعليك أن تقول "نعم" وتصبر لمدة عام كامل على عدم الكلام، حتى ترانا نطير إلى المكان الذي ستكون فيه ومعك القمصان الثلاثة، وحتى ذلك الحين لن يكون هناك المزيد من الضحك أو الحديث، الغزل فقط.

- نعم!

قالها باندفاع. والآن.. لا رجعة.

فارق النسر الملك "إليزا" بقلب مثقل بالهموم والأحزان وعاد إلى أمه في صمت. لاحظت الأم بسرعة أن هناك خطب ما يتعلق به.

- لقد أصبحت هادئًا جدًا يا بني. يبدو أن هناك العديد من الأشياء التي حدثت لك مؤخرًا. أخبر أمك بما يزعجك. ارسمه لي بواسطة جناحيك أو بيدك أو بعينيك إن استطعت. سوف تفهم أمك كل شيء.

لوَّح لها بيديه، ثم استدار وقفز، وفتح عينيه محدقًا. لو رآه أحد غير أمه لوجد أن ما يفعله هو الأكثر غرابة على الإطلاق. تابعته أمه بصبر وببعض المنطق الخاص بها، بدأت تفهم ما يحدث.

- لن يكون الأمر سهلًا على الإطلاق. يمكنني أن أتذكر تقريبًا أنني قد تم إخباري بشيء يشبه ذلك في أحلامي ولكنك لم تكن صبورًا بما يكفي لتسمعني حتى النهاية. أيًّا كان الأمر، سوف تمر بأوقات صعبة ومريرة حتى تتعلم الغزل. خصوصًا في البداية، ولكن بمجرد أن تتمكن من عمل أول غرزة لك سوف يصبح الأمر أيسر بكثير وسوف تُفاجأ بمدى تقدمك السريع. في حالتك يا بني؛ سيكون الأمر أكثر تعقيدًا من المعتاد. فأنت بحاجة إلى يد، حتى والدك بكل خبرته في الطيران لم يكن شديد المهارة في استخدام أجنحته؛ والآن دعنا من الشكوى.

صمتت قليلًا ثم أكملت قائلة:

- اجلس واستمع إليّ جيدًا. في إحدى يديك - في حالتـك سـتكون يـدك اليـسرى. يجب عليك أن تمسك إبرة الغزل ذات الخطاف. هز رأسك إن كنت تفهم مـا أقـول. حسنًا. وبعدها وبهذه الطريقة سوف تستخدم جناحك الأيمن في حمل الخيط ولف الخيط حول إبرة الغزل. نعم هكذا. قـم بعمـل الغـرزة الأولى بـبطء. والآن اسـحب الخيط باليد التي تمسك بها الإبرة واصنع ذيلًا. ضفيرة. أنـا أعـرف يـا بنـي أن الأمـر صعب. ولكنك إن نجحت في عمل غرزة فهذا يعنـي أنـك سـتتمكن مـن عمـل كـل شيء. تعال، دعنا نكرر المحاولة. لا تنزعج. في وقت من الأوقات سوف يـصبح الأمـر سهلًا لدرجة أنك ستتمكن من عمل الغرز بظفرك. لف الخيط، أدخله في الإبرة. ثـم قم بشده هكذا. والآن خذ قسطًا من الراحة وأثناء الاستراحة سـوف أعلمـك نمطـين من أنماط الغزل؛ الأول هو غرزة الغزل والثاني هو غرزة التطريز. هز رأسك إذا كنت تفهم ما أقول.

بدأ ملك النسور عامه الطويل وهو يشعر بالتعب من كثرة الغزل، الأسـوأ مـن الغـزل هو اختيار نوع الغزل - نبات القراص - وإحجامه عن الكلام والضحك. وكما توقـع، كانـت المشكلة الأساسية في هذا الأمر هو ردة فعل شعبه من الطيور. وهم لديهم كـل الحـق كي يكونوا غاضبين. فكونه لا يضحك كان أقل مخاوفهم: فالنسور ليسوا مـشهورين بتمـتعهم بحس الفكاهة.

ولكن الصمت استحال إلى مشكلة حقيقية. إن كـان عـدم حديثـه معهـم شكل من أشـكال الغطرسـة لكـانوا سـامحوه؛ فهـو في النهايـة ملـك النـسور جميعها. لكن ساعة بعد ساعة، يـوم وراء يـوم، شـهر بعـد شـهر، وهـو بـاقٍ على هذه الحال ونادرًا ما يجلس على عرشه المصنوع من الحجـر، ولا يحلـق

ولو لمرة واحدة، هو فقط جالس هناك في صمت يغزل! يحلق فقـط بجناحيـه بعـد منتصف الليل باحثًا عن المزيد من نبات القراص اللازم لغزل القمصان وقد تورمـت أصابع يده اليسرى لكنه بالرغم من ذلك استمر في الغزل في صمت وقد ملأت عينيه نظرة متبلدة باهتة. فهمت النسور هذا الأمر على أنـه دليـل صـارخ عـلى التـدهور التام.

انتشرت الشائعات بين الطيور كالنار في الهشيم، وبدأ يعلـو صـوتها أكـثر فـأكثر. ورغم علمه بكل هذا استمر في صمته وفي الغزل. طالبت الطيور بعقد جلسة طارئة لمجلس الطيور. فبعض الأصوات الغاضبة بدأت تعلو في مملكته.

- لقد اكتفينا من هذا الحاكم! اعزلوه!

كان ينهي القميص الثالث في هدوء، والاثنان الآخران قد انتهى منهما ووضـعهما بجواره.

- هذه إهانة! إنه يسخر منَّا! يا للعار.

وفجـأة، أظلمـت الـسماء وهبطـت منهـا ثـلاث بجعـات ليملـؤوا الفـراغ الضيق الذي بقي حوله وقد قمن بإحناء أعناقهن في خضوع لـه. فقـام عـلى الفور بإلقاء القمصان الثلاثة فوق رؤوسهن، وكانـت المفاجـأة التـي أذهلـت الحضور؛ فقد تحولت البجعات الثلاث إلى "إليزا" وأختيها. كان المنظـر رائعًـا! فالفتيـات كـن رائعـات في قمـصانهن المغزولـة الـلاتي كـشفن عـن روعـة أجـسامهن البـضة اليافعـة. انهمـرت دمـوع الفرحـة عـلى وجـدتني "إليـزا"

وأخبرت المستمعين المتلهفين لسماعها عن محنة الأخوات الثلاث مع سحر زوجة أبيهم الأسود الشرير والتضحية التي قدمها ملك النسور.

- توقفوا عن الضغط عليها! واتركوا لها منفذًا لكي تتنفس!

بعد عام كامل سمعت النسور أخيرًا صوت ملكهم حازمًا وواثقًا كما كان دومًا من قبل. وعلى الفور أفسحوا الطريق له ليمر ويقترب من "إليزا". ليحتضنها بقوة ويعانقها وعندما لاحظ أنه بدلًا من أن ينبت لها الذراع الأيسر، ما زالت تحتفظ بجناحها الأيسر.

-أيها الذراع المسكين! لقد خذلتك. لم أستطع إكمال الكم.

- لا تحزن! سوف أحتفظ بجناح البجعة هذا رمزًا لحبك لي وسوف نكمل بعضنا البعض عندما نمارس الحب.

أنهى ملك النسور بعجلة كافة الشكليات العائلية والمجاملات التي تتعلق بالوزراء، وأختيها، وأمه - التي كانت تذكِّر الجميع بالدور الرئيسي الذي لعبته في عملية الغزل. بعدها قام الاثنان بخلع ملابسهما وذهبا للنوم عراة. ابتسمت "إليزا"، فسألها وهو يشعر بالقليل من الإهانة:

- ما الذي يضحكك؟

- تلك الشامة يا عزيزي الموجود على قضيبك. والآن، ونحن على وشك أن نبدأ علاقتنا الحميمة، رأيتها على الجانب الأيمن من قضيبك.

- وماذا في ذلك؟

- حسنًا، أنت تعلم أن هناك معتقدًا سائدًا بين قومنا أن هؤلاء الذين يكون لديهم شامة في الجانب الأيسر.. كيف يمكنني أن أقول ذلك؟ أنت تعرف، يكونوا مثليين.. وهؤلاء الذين يشبهونك، من أصحاب الخال على جانبهم الأيمن، يكونوا مستقيمين. هلا بدأنا في العناق الآن. فقبلاتي ستعيد البسمة مرة أخرى إلى وجهك.

أصبح صوتها أكثر عمقًا كما لو أن بحلقها طائر محبوس.

- يا إلهي!

قالها الرجل ذو الجناح الواحد لنفسه. كان الأمر أروع من أكثر تخيلاته جموحًا.



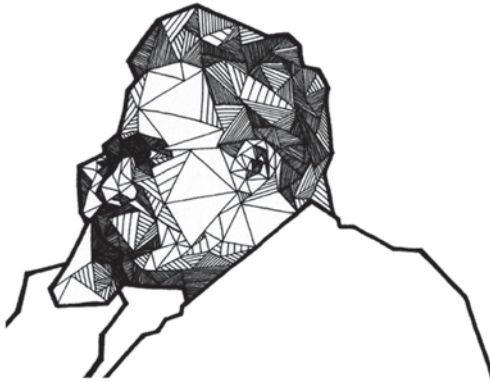
عاش الاثنان بسعادة بالغة لوقت طويل، حتى نهاية حياتهما، خصوصًا هو. فقد اعتنت "إليزا" به حتى ماتت، بعدما صار أرمل وهو في الثمانين من عمره. لقد ورث عن أمه طول العمر. حرص على ألا يحتاج ابنه ووريث عرشه لأي شيء. ساعد فقدانه لذاكرته على احتمال تلك الفترة من حياته. لقد شعر بأنه لم يعد هناك شيء ليعتني به في العالم، وأضحى ما تبقى من حياته كطفولة ثانية مملوءة بالتخيلات والكائنات الخرافية القادمة من عوالم خرافية بعيدة. في سنواته الأخيرة، ضعف إدراكه، وحصلت تخيلاته على جناحين قويين استطاع من خلالهما أن يهيم بسعادة وحرية بين هذه العوالم.

في مرة من ذات المرات، وبمعاونة بعض خدمه المخلصين، قرر أن يتسلق تلة بعينها والتي تبدو مألوفة نوعًا ما بالنسبة له (كيف ذلك؟) ليجلس على إحدى صخورها الضخمة وسط إحدى الطرقات التي تم إزالة بعض الأشجار التي نبتت بشكل عشوائي منها. ليتناول قضمة أو اثنتين من الحلوى التركية التي يحبها مع جوز الهند اللذيذ الناعم الملائم لفكه الخالي من الأسنان، ناظرًا للسماء ليتابع حركة بعض السحب الصغيرة والكبيرة المتنقلة ذات الأشكال المتغيرة، والتي تتحول من هيئة الأحصنة إلى هيئة الأفيال ومن الأفيال إلى القطارات ومن القطارات إلى الثعابين.. وهكذا بلا نهاية.



القصة الرابعة

إنساني مفرط في إنسانيته





"يجب ألَّا تُروى أحداث هذه القصة الخيالية على الطرق السريعة ليًلا".



"وحين أكون قد رحلت عن الدنيا، فلن

أتجَسّد الشكلَ الدنيوي (الموجود)

وإنّما الشَّكل الذي كان يبتدعه الصّاغةُ الإغريق

من الذهب المطروق، أو الطلاء الذهبي

لجعل الإمبراطور النّاعِس يقظًا

أو لأغّني، على غصنٍ ذهبيّ

لسادةِ بيزَنْطة وسيّداتِها

عمَّا مضى أو يمضي أو ما سيكون".

ويليام باتلر يتس، "الإبحار إلى بيزنطة".



على الضفة المقابلة، ومن أعماق الغابات وعبر الضباب الذي تبدد بعد سقوط الأمطار، طار سرب من الطيور بصورة عمودية تقريبًا، نحو السماء. وقد تردد صدى صرخاتهم في الضباب هناك بعيدًا عن النظرات القلقة للبشر والأحصنة المتجمعين على ضفة النهر. هناك على تلك الضفة، يتجمع الأعضاء المجهولون الهائمون على وجوههم بلا هدف قبل لقائهم بسيد العالم السفلي.

ظل الجميع يتتبع حركة النهر ليومين وليلتين كاملتين. في البداية، خدعوا أنفسهم بأنهم يستطيعون اجتياز المياه. والآن وبعدما أصبحوا واقفين وسط الصرخات المحتضرة المخيفة للظلال الوهمية التي طارت نحو الأعلى، بدا النهر ساكنًا بلا حراك كأنه نذير شؤم.. بدا كبركة من الطين الأخضر الغامق.

"كيف انتهى بي الحال إلى هذا اللا مكان؟".. تساءل الراكب وهو ينظر حوله باحثًا عن ذلك الفراغ المسحور، وفي الوقت ذاته كافح لكي يهدئ من روع حيوانه الهائج. في وسط العضلات المتشنجة والعرق البارد المتصبب من حصانه الفحل استشعر الراكب السبب خلف خوفه. فتلك الطرقات الشيطانية كلها قد تشابكت معًا وكان تخليه عن زمام حصانه يقع تحت رحمة أكثرهما جنونًا.. أكثرهما هروبًا من العقلانية والمنطق. ووسط كل هذا الظلام المخيف، تعرَّف الراكب على العلامات والإشارات، تلك التي لم يرَ مثلها سوى في الكتب:

- هنا تختبئ أنفاس أجدادنا.

تحركت سبابة الشرقي فوق النقوش.

- لقد نقشوا أسرارهم في الحجارة واختفوا. أعلن البرق والرعد أن وقت الرحيل قد حان. من كانوا؟ كانوا كالأيام المشمسة التي اعتبرتها الآلهة طيورًا مهاجرة. مروا في لمح البصر وحل الخريف بالفعل. الصمت المطبق. لكن الحجر قد حفظ جراحهم بمنأى عن نسيان البشر. مد يدك. هل شعرت بالعاطفة وهي تتحرر؟ وعندما نظرت إليه، هل اعتقدت أنه مجرد حجر ميت لا يشعر بالمعاناة. هل ما زلت ترغب فيه؟

بقي الرجل يضغط على يد الراكب بين يديه وعلى التعويذة، رفع السوري عينيه من تحت جدائل شعره البيضاء المتهدلة على وجهه.

– أنت نبيل. وحاشيتك متعالية وقاسية وعنيفة. لكنني لا أخشى السيف. لقد نزعت عني رداء الخوف في بيروت. تركته هناك بين رماد وركام ما كان يومًا بيتي. وقد تم التنبؤ لي بأنني سأكون الواهب والمنعم الذي سيعبر فوق الحجر مصحوبًا بالنعمات. أنا، سليل "سيث" الذي تنبأ بموت "روبير جيسكار". يقال إن الأحجار قد ترى مئات الحيوات. وحياتي وحياتك ما هما إلا مجرد دفقات من المياه في سلسلة تدفقها المستمر.

ابتسم السوري ابتسامة عريضة، مما دفع أصغر المرافقين للغمغمة بكلمات غير مفهومة. كان الشاب يشعر بالرعب من تلك الحكايات التي تُروى عن "جايلو" الوحش المتعطش للدماء الذي يمتص دماء الأطفال في الصحراء تاركًا جلودهم خلفه. كان سعال الشاب الصغير الذي لم تنبت

لحيته بعد قصيرًا ومتقطعًا، وقد أزاح صوت سعاله ذلك الفضاء الثقيل كوهج سريع أُخمد فجأة.

- لا تخدع نفسك بوهم أنها ستحميك، على الأقل ليس على طريقة هؤلاء الحمقى والأغبياء الذين يزينون أنفسهم بالسلاسل الذهبية ويتوهمون بأنها ستحميهم.. فعالمنا عالم هش نبيع فيه أميراتنا للهمج البرابرة كي ننعم بالسلام الذي لن يدوم سوى لعامين فقط. لا أحد يستطيع أن يدَّعي البراءة؛ فقطعان الذئاب الآتية من الشرق ما هي إلا ثعبان "الهيدرا" ذو المائة رأس. والمحاربون القادمون من الشمال ما هم سوى رياح باردة آتية من السهول اللا نهائية التي تجتاح "المدينة المقدسة". في الماضي كانت الإمبراطوريات والممالك تتصارع فيما بينها، لكن ما الذي يجب علينا أن نفعله الآن؟ لن تستطيع الأحجار أن تساعدك إن كنت ترَ بعينيك فقط. لن تتمكن من رؤية أي شيء آخر عدا سطح مظلم لا ضوء له. ولكن إن كان الضوء يبحث عن ملجأ له بداخلك، فإنه قد يطلعك على بعض من حكمته. وسوف تتفجر تنبؤاته بطريقة غير متوقعة، مثل الطحالب الخضراء التي تنمو على سطح الصخرة المهزومة العارية. على الرغم من تحذيره بأن أول من تطأ قدماه أرض "طروادة" هو مقتول لا محالة. كان ابن "ليارتس" أول من قفز من السفينة مرتديًا درعه الذي سبق وألقاه على الشاطئ. وبقي على قيد الحياة ونال الشهرة.

إن الدماء المختلطة للأبطال تتسرب من الفتحات الموجودة في الدروع البرونزية مثل البذور التي تنبت من قدحات الأعين المشقوقة فتغير ماء النهر إلى اللون الأحمر. صرخات الحرب وصوت حشرجة الموت تطفو مع الأمواج؛ الغضب المتكبر للمذبوح الذي عانى من كبريائهم وعجرفتهم..

المحارب القديم صاحب اللحية الرمادية وقد انـضم للـصبي المـتحمس في احتـضانة مياه "خارون" الأبدية لهما. لقد اجتمعنا هنا اليوم لكي نحظى بتجربة "باتروكلوس" نفسه في الغرق في بحر الوحدة، كي ننعي الشمس التي كان سـيكدح تحـت أشـعتها طوال الليل والنهار بصمت. آه لو تمكن من الشعور بأشعتها الذهبيـة الدافئـة مـرة أخرى. لنستفيق في صبيحة اليوم التالي للمعركة على مـشهد الكـلاب وهـي تتغـذى على جثث المهزومين.. جثث مغطاة بالثلوج. مشهد يساوي في عظمتـه خلـق العـالم كله.

ترك الراكب وقد استقر على وجهـه التعبـير نفـسه عنـدما شـاهد برابـرة الـشمال يلعبون لعبتهم الصامتة مع الفتيات. كان هناك شاب يافع يغـري إحـدى الفتيـات كي تكرر حركاته البهلوانية. كانت كل حركة جديدة أسرع وأكثر صعوبة من التي سـبقتها. احتفت تلك اللعبة بالصحة؛ ولكن احتفاءهما ذاك كـان بـالموت.. وفي كـلا المـشهدين كان هناك النوع نفسه من الضوء الذي ينتشر فوق كل الأجـساد والمنـاظر الطبيعيـة؛ ضوء مثل الأعمدة التي تنغرز بين فتحات شبكات "الناموسيات" وتتسرب مـن خلالهـا لتملأ رحم غرفة النوم بالنور. نـور النعمـة الـسماوية التـي غـيرت العلاقـات القدريـة الموجودة هنا ما بين الوجه وصوته، بين الشيء وحركته، الضربة السعيدة لأبينا الأثيري. يمكن للراكب الآن أن يشعر بالعطف اللا نهائي وبالقوة اللا نهائية التي تمـددت فـوق وتحت السحب. ويمكنـه كـذلك أن يـشعر بـضفائر الفتـاة المهزومـة، وبريـق الخلـق المنتشر في كل مكان، كل مكان..

ليأتي صوت السوري المتهكم الأجش ليعيده مرة أخرى إلى الحقيقة القاسية للضباب البارد الساكن على ضفة النهر. وبألم شديد بدأ ينزع تلك القشرة الرقيقة للصورة المثالية التي كان يرسمها.

- إن الذي كان يمتلك الحجر قبلي قد خلط الحكمة بالجنون. كان يُعرف باسم "قسطنطين أناستازيس"، أحد النبلاء المنحدرين من العاصمة الذي تم إرساله كي يدير إقليمنا. يقول الناس إن أشعة الشمس الملتهبة تحفز التخيلات والأحلام الزائفة داخل نفوس الحكام الشرقيين؛ أحلام وتخيلات بامتلاك إمبراطوريتهم الجديدة لقوى خارقة، أوهام معززة بتماثيل عملاقة. بالأسفل رجل يطلب المزيد ويحصل عليه، مُحاط في أرجوحته الشبكية بالنباتات المذهلة. لذا فـ"قسطنطين"، الذي علم بأمر الحجر، تعذَّب برؤى مجنونة لما يمكنه تحقيقه فقط إذا وضع يديه على الحجر. أشار إلى كتبه وتلا صلوات طويلة. ولكن كل ما استطاع أن يراه بين طيات الصفحات المكتوبة والأيقونات هو الحجر. بدأ بحثه في أول الأمر بشكل رصين، وبعدها زادت عملية البحث جنونًا. وفي الغروب الثالث عشر، وبجوار مقبرة الشهداء المخلدة، همس أحد جواسيسه في أذنه أن الحجر مخبَّأ في بيت "موسى بن أزاي" أحد التجار المقيمين بحارة اليهود. وبناءً عليه أمر "قسطنطين" حراسه بأن يُحضروا التاجر له. وفقًا للقانون الإمبراطوري الذي كان يسمح لليهود في هذه الحقبة بأن يشغلوا كل المناصب حتى المناصب الرفيعة مثل منصب مديري المحاكم، قرر "قسطنطين" أن يستقبل "موسى" هذا بابتسامة عريضة.

يمكنه تخيلهما معًا على النحـو التـالي: التـوتر الـذي يمـلأ جـسد الحـاكم مخفـي بصورة سيئة في عباءته المصنوعة من القطيفة الخضراء، وقـد ارتـسمت عـلى وجهـه ابتسامة متشنجة، وجسد الرجل اليهـودي المقـوس الـذي ظهـر مـن بعيـد وهـو في طريقه من المدبغة متوجهًا نحو القصر، وقد ودَّع كـل النكـات التـي كانـت تنطلـق حول طاولة العائلة، واستبدلها بالهمهمة الهادئة التي تسود الكنيس.

قبيل وقوفه أمام الحاكم، كان قد تخلَّص تقريبًا من كل مخاوفه، وانحنـى أمامه ليس من منطلق الخنوع لمعذبه المحتقر ولكن بـسبب الآم الرومـاتيزم الوراثي التي كان يعاني منها. اعتقـد "قـسطنطين" أن التـاجر اليهـودي يـسخر من السادة المسيحيين المتعجرفين الذين استهلكوا كل مهاراتهم عـلى الموضـة والمؤامرات وفي مـضمار الـسباقات ولم يعـد لـديهم المزيـد مـن الوقـت لـكي يتذكروا شعبهم وأهلهم.

مـرة أخـرى يقطـع صـوت الرجـل الـسوري الأجـش المـشهد الـذي تخيلـه الراكب.

لم يسبق لليهـودي أن اسـتخدم الحجـر مـن قبـل. يقـال إن حاخامـه قـد نصحه ألَّا يفعل، مكررًا كلمات الحاخام "هيليل" أمام الجميع: "لا تكن بـارزًا ومعروفًا في مجتمعك! ولا تـؤمن بـذاتك حتـى يـوم وفاتـك! واقتـبس بعـض عبارات "سيمون بن زوما" المعروف باسم "ابن زوما" لحكمته وعطفه، وتبـع ذلك الاقتباس بقول "ابن زوما": "من رأى منكم "ابـن زومـا" في أحلامـه فقـد ضمن التفوق في دراسته".

ولكن من تأثر وتحمس لدراسته، فسينعم بجنة الآخرة، وسيودَّع قدرته على التفكير العقلاني السليم. على الرغم من النصيحة، لم يشأ "موسى بن عزاي" أن ينفصل عن الحجر المعجز واحتفظ به في تابوت في حجرة ما في منزله في مكان مخفي لا يعلمه أحد سوى زوجته.

كان يغلق الباب على نفسه كل مساء في تلك الحجرة، ويخرج التابوت ويفتحه ليحدق في الحجر، وهو مفتون به. وحتى عندما عاقبه "قسطنطين" بأقسى أنواع العذاب، ظل "موسى" صامدًا رافضًا الكشف عن مكان الحجر. وبالتالي قام "قسطنطين" بمنتهى المكر والدهاء بتوجيه أوامره لحراسه بإحضار زوجة "موسى" وأبنائه لحجرة التعذيب الموجودة تحت الأرض. هناك اكتشفوا مكان احتجاز أبيهم، وقد استحال الرجل إلى كومة مختلطة من اللحم الممزق والملطخ بالدماء. وجدوه مقيدًا بالأصفاد ويئن ويتلوى من شدة الألم الذي ينبعث مما كان يعرف يومًا بأنه وجهه. كانت إحدى عينيه خارج مقلتها لتكمل تلك الفوضى المرعبة، والأخرى ظلت تتحرك في جنونه بفعل ذلك الألم. لكن "راشيل" زوجة "موسى" المطيعة، من أجل كل ما نشأت وتربت عليه وكل ما سمعته من قصص المعاناة التي كانت تروى عن أجدادها، لم تحتمل نظرة اليأس والإحباط المجنونة التي تملأ عيني حبيبها. عين لم تعد حتى تقوى على التعرف عليها من هول ما لقته من العذاب. وكانت النتيجة أن "قسطنطين أناستازيس" قد حصل على حَجره وعلقه في رقبته. يقول الناس إنه عندما ظهر أمام خدمه في صبيحة اليوم التالي، كان أشيب الرأس وكانت نظرات عينيه متوحشة وقد شوهد من قبل البعض وهو هائم على وجهه بين

الحقول، ومعطفه الأرجواني يرفرف خلفه. وقد انطلق بحصانه بصورة جنونية، وظل يبتعد حتى اختفى من أمام أعين جنوده المذهولين الذين ظلوا يراقبونه وهو يبتعد ويختفي خلف جدران المدينة.

جال بخاطر الرجل وهو ينظر إلى وجه أصغر الحاضرين المتوتر، أنه من المعتاد إساءة الظن بالعديد من هؤلاء الشباب الصغار سريعي الانفعال الذين ينظر إليهم باعتبارهم شباب طائش يستنزفون أنفسهم في متع رخيصة في المدن. ففي حقيقة الأمر هؤلاء الشباب ممزقون بفعل الارتباك والتشويش والبحث العقيم عن المعنى.

- ولم يعد مرة أخرى. في البداية عثروا على جواد بلا فارس وبعد ذلك وجدوا جثته ملقاة في إحدى الطرق الممهدة بالغابة. وكانت جمجمته مهشمة. وقد عرف بعد ذلك أن اسم الحصان الذي انطلق به هو "ثيوفيلوس" وقد سُمى على اسم ذلك الشخص الذي باع روحه للشيطان ووقَّع على العقد بدمه.

- والحجر، ماذا عن الحجر؟ كان صوت هسهسته يشبه الصدى الخافت القادم من الجحيم. كيف حصلت أنت على الحجر؟

حدَّق السوري فيه بعينين منتفختين محتقنتين بالدماء.

- قيل إن روح اليهودي المعذبة قد مسَّت الحصان. فضربة حافر الحصان التي هشمت جمجمة اليهودي، لا يمكن أن تكون قد تمت بهذه الدقة بواسطة حيوان لا يفهم. لا بد أنه قد تم التحكم فيها بواسطة يد بشرية.

بدا له أن صوت السوري قد ارتعش كصوت رجل عجوز، أو ربما ارتعش بسبب ثقل تلك اللحظة المتوترة التي سحقت الحاضر.

- عندما أمسكت بالحجر، وشعرت بملمسه على جلدي.. كنت شابًا مندفعًا. في طولك تمامًا.. قوي وظمآن.. والآن..

أمسكت اليد الضعيفة الذابلة بالحجر وقد نقشت الرسالة النبيلة على سطحه: رسالة البشر المنحدرين من النسل الذهبي؛ الآلهة المتجسدة في هيئة بشرية الذين استمتعوا بعالم وحيدات القرن البيضاء.

كان مقدرًا لرسالتهم أن تحيا من خلال جشع وطمع واستهتار ورعونة أحفادهم المخلوقين من الطين: "ابن عزاي" النبيل.. النبيل "قسطنطين"، السوري البائس الفقير ونفسه، والشاب اليافع الذي التهم الحجر بنظراته.. جميعهم أسرى حقارتهم وخستهم ووضاعتهم.

همس أبوه الذي كان يعشق "أفلاطون" بجنون في أذنه وهو على فراش الموت، أخذ يحك رأسه وكأنما كان يحاول تخليص نفسه من القمل الذي علق به.

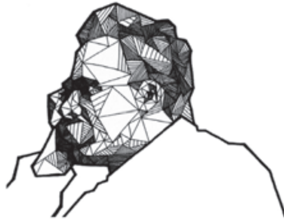
- هل يمكنك أن ترى هذا التين الموجود هناك؟ لقد أحضرته أمك. هل تراه رائعًا وجميلًا؟ مليء بالعصير؟ ولونه الداخلي أرجواني غامق. لكنني أقول لك إنه نتن وعطن! نتن! إنها تسممني، يا بني! انظر إلى تلك الشوائب التي تطفو على سطح حسائي؟ أمك العاهرة تقول إنها قطع من السمك الطازج، وقطع بطارخ يسيل لها لعابك. ولكنني عندما قطعته بالسكين اكتشفت أن رائحته كريهة!

لقد نجح أبوه في إقناع نفسه بأن أكثر حليف مخلص له.. الإنسانة الوحيدة التي ظلت بجانبه في سنوات المنفى الصعبة، والتي تبعته إلى الجزر الصحراوية، وشجعته ونصحته وأنجبت له ولدين ربتهما على العز والدفء، كانت تحاول أن تسممه. حتى والده، ذلك النموذج اللامع للمعلم والناصح، لم يكن قادرًا على أن يهرب من وصمة الشيطان ومن غوايته، ما الذي يأمل فيه هو نفسه بعد ذلك؟ وهو أكثر انحطاطًا من والده، ومدنس أكثر منه؟ النفي الذاتي، ربما، لكن أين؟ فوالده يمتلك منزلًا به مكتبة والوقت الكافي ليترجم الكتب التي تتحدث عن الحيوانات في أمسيات الصيف الدافئة، لكنه تحطَّم في النهاية. ما الذي يمتلكه الآن؟ منزل عائلته المهجور الذي لا يرعاه أحد بعد أن ورط أخيه نفسه في خطط أولئك المخصيين، ولم يزر هذا المكان بعدها أبدًا.

عندما نهب أولئك الذين يسمون أنفسهم حماة الإيمان - الذين يرتدون سن خنزير بري يتدلى من أعناقهم السمينة - المدينة الإمبراطورية ودنسوا ميادينها وهم يصبون لعناتهم والعظام المهشمة في احتفالاتهم اللا نهائية، تأكد من أنهم في المرة القادمة لن يتوقفوا عن تدمير البوابات وسلب ونهب كل شيء. كان يحمل رتبة الـ"برونوياي" في الجيش.. كانت رتبته في أوقات مثل تلك ترمز إلى قادة الجيوش الصغار، لكنها لم تجلب سوى الاتهامات، والمؤامرات، والشكوك. لوقت قصير، نجح في الهرب من كل ما تحمله تلك الرتبة، ولكنه كان يعرف أنه سيقع في نهاية المطاف في شركها.

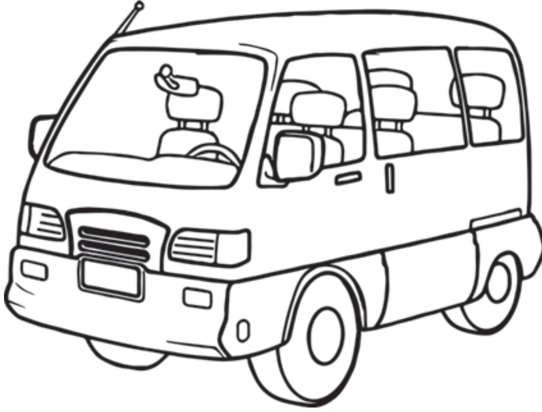
ربما خلقه الرب عقيمًا لحكمة ما؛ لكي يتمكن بسهولة من الانسلاخ من كل شيء. إن كان مقدرًا له أن يكون نصيبه من الخسارة أكبر من نصيبه من السعادة، إذًا فلم لم تتنبأ رقصات خادم الصخر الناعمة بهزيمته الأخيرة تلك؟

ماذا لو قام الرجل بإلقاء الحجر في أعمق الكهوف أو تركه في أبعد الصحاري؟ لقد طارد السوري عبر دروب الإمبراطورية كلها، وهو أمر شاق ومرير يشبه القفز في المجهول. والآن وبعد أن وجده أخيرًا في مسكن أقزام الغابة، تقبَّل الحجر المنقوش بهدوء وسكينة - تقريبًا بفتور. هل يجب عليه أن يتركه لأصغر الحاضرين؟ ذلك الذي خرقت نظراته الحادة ظهره؟ أو أن يخفيه في صدره وهو يرسم على وجهه ابتسامة منتصرة؟ كل الأمور تتشابه. راقبته العين المعتمة الموجودة في منتصف الحجر ببرود؛ كأنه نملة، أو بقعة غير مهمة في لا ماهية الوقت. وسواء في اليوم التالي أو بعد عشرة سنوات، سوف يتم استبداله بغيره: مجرد شيء عابر في الوقت.. ساذج أو ذكي أو يعاني، ولكنه في كل الحالات تافه، ووضيع. إنساني.. مفرط في إنسانيته.



القصة الخامسة

قصة عيد الميلاد





"يجب أن تُروى أحداث هذه القصة الخيالية في الليلة السابقة لليلة

ميلاد أبينا الفقيد".



كانت مقاعد" الميني باص" تشبه لحد كبير الكراسي ذات المساند الموجودة في أروقة الفنادق الفاخرة وهي أفضل بكثير مما يتوقعه أي شخص في "ميني باص" سياحي أصفر اللون. في كل صف يوجد مقعدان فقط من تلك المقاعد، وثمانية في "الميني باص" بأكمله، ناهيك عن مقعد السائق والمقعد المجاور له. كانت المقاعد وثيرة بدرجة تسمح للشخص بأن يضطجع للخلف ويسترخي ليحظى بغفوة ممتعة خلال الرحلة. وفي الحيز الموجود بين المقاعد توجد طاولات صغيرة لكي يضع عليها المسافرون قهوتهم أو العصير. خلاصة الأمر أن الراكب سيتملكه شعور بالراحة كأنه في بيته بفضل تلك التجهيزات!

ركب الشاب "الميني باص" بالفعل وكان متوقعًا أن يأتي أبوه ليجلس إلى جواره. لكن فجأة ظهرت إحدى السيدات وتصرفت كما لو أنها تعرفه. اقتربت منه، وجلست على الكرسي المجاور له دون أن تسأل إن كان المقعد شاغرًا أم لا. في تلك الأثناء، جلس والده دون شكوى على الكرسي المجاور للسائق. كان ذلك المقعد أضيق وأقل راحة من بقية المقاعد.

التفتت السيدة إليه على الفور بأنفها الذي يشبه المنقـار الحـاد وتحـدثت معـه بصوت مرتفع.

- ما رأيك؟ هل تعتقد أننا سنـصل إلى وجهتنـا قبـل منتـصف الليـل؟ بعـد تلـك الرحلة الطويلة قد يصبح والدك بلا حـول ولا قـوة كالطفـل. أمَّـا أنـا، فيجـب عـليّ القيام بالكثير من الحركة هنا وهناك كي أهـيء المنـزل وأضـعه في سريـره في الوقـت المحدد.

مالت نحوه وهي تتحدث.

كانت هذه السيدة ترتدي معطفًا مصنوعًا من الفراء الخفيف ووجهها مغطـى بمساحيق التجميل وكل ما استطاع أن يشمه منها هو رائحة الصوف واللحم المملح. كانت السيدة تتمتع بمزاج جيد وقوام رشيق، وترتـدي ملابـسها بـشكل أنيـق كأنهـا ذاهبة لحضور حفل ما أو مهرجان.

- أليس كذلك يا أبي؟

صاحت بصوت عال في اتجاه والده في الوقت الذي كان يعج فيه "الميني بـاص" بالركاب الذين يصعدون ويبحثون عن مقاعدهم.

- أجل يا حبيبتي، أنت على صواب.

"ما الذي أصاب والدي؟"، لكنـه لم يـستطع أن يكمـل طـرح هـذا الـسؤال عـلى نفسه حتى باغتته تلك السيدة بثرثرتها.

- الزواج شيء نافع ومفيد جدًا إذا بُني على أسس وقواعد قوية. ونحن جميعًا نعلم من الذي يرسي تلك الأسس والقواعد؛ النساء بالطبع! أليس كذلك، يا أبي؟

لحسن الحظ، تردد صوت ما.. لم يكن صوت أبيه لكنه كان صوت السائق وهو يصيح نحو الخلف:

- هل ركب الجميع؟ هل نحن مستعدون للتحرك؟

- بالتأكيد!

رد جميع الركاب في وقت واحد بتناغم وانسجام.

- حسنًا. فلتتناول بعض من هذه. اعتبرها بداية جيدة لهذه الرحلة..

قدَّمت له السيدة الثرثارة بعض البرقوق المجفف "القراصيا" الذي أخرجته من إحدى العبوات، كانت "القراصيا" بلا بذور ومحفوظة داخل علبة لكي تحتفظ بعصارتها. وبينما هو يتناول حبة القراصيا المجففة الرابعة، جال بخاطره أنه قد يكون هناك بعض الطيبة والخير في تصرفات تلك السيدة التي تتميز بالاندفاع. وكان الشاب السمين صاحب الشارب سعيدًا جدًا لا لشيء سوى لأنها كانت تقدم له المزيد من حبات "القراصيا".

- أنا أعرفك لقد سبق ورأيتك في مكان ما..

أخبرته السيدة.

- لقد سبق ورأيتك في التليفزيون. أجل، أنا أتذكرك. لقـد رأيتـك في إعـلان "بـيرة سكوبسكو".

- آه! لقد كان شيئًا دون أهمية، شيئًا صغيرًا قمت به مقابل الحصول عـلى المزيـد من المال. لكي أكون أمينًا معكم، على الرغم من ذلـك، أنـا لـست مـن كبـار المعجبـين الكبار بالبيرة. أنا شخصيًا أفضل زجاجة من النبيذ الجيد.

على غير المتوقع من شخص في مكانته، إلا أن كلمات الرجـل الـشهير اصـطحبتها حركات تمثيلية قام بها بيديه.

- أنا "هوريس سفيكالو"، الممثل.

غمغمت السيدة وقالت:

- أنا أعلم أن لك اسمًا آخر مضحكًا.

والتفتت كي تتفحص ملامحه بفضول صريح.

- أجل، أجـل إنـه أنـت! أبي، هـذا الرجـل المـدعو "هوريـشيو" صـاحب اللقـب المضحك، مسافر معنا.

أضاف بصورة مهذبة:

- "سفيكالو" الممثل.

تساءلت السيدة:

- ما هي آمال وتطلعات ممثل مثلك في الوقت الحاضر، "هوريشيو"؟

وحدقت بصراحة في وجهه.. وهي إحدى عاداتها الأكثر إزعاجًا على الإطلاق. ظلت لبرهة تنتظر إجابته. بدأ الممثل السمين تفسيره بنغمة صوت هادئة مصحوبة بالمزيد من الحركات النشطة.

في لحظة ما، نصل جميعًا لنقطة نعتقد فيها أننا قد وصلنا إلى الحضيض.

في بداية الرحلة، كان"هوريشيو" والسيدة أكثر المتحدثين. إلا أنه ما لبث أن انضم لهذا النشاز خمسة من أصوات المسافرين الآخرين، إلا أن صوت السيدة ظل هو الأعلى بينهم. ومن ناحية أخرى، بقي والده ملتزمًا الصمت بجوار السائق.



- نصف ساعة راحة.

صرخ السائق.

على الرغم من اعتياده على الاستراحات الغريبة المنتشرة على جانب الطريق، إلا أن تلك الاستراحة كانت فريدة في نوعها. فعلى الحائط المقابل للباب، فوق "الكاونتر" الذي من المفترض أنه "البار"، لكنه في الحقيقة بدا كمنضدة قديمة ومسروقة من مخزن أحد الجامعات وكُشط سطحه. يوجد كذلك على سطح "الكاونتر" عَلَم مبتكر مصنوع من أوراق التغليف ومثبت بأنواع مختلفة من

شرائط اللصق؛ به شمس، وهرم وسندان حداد ومطرقة وكماشة تـم رسـمهم عليـه، وأحيط بمجموعة من صور "الإسكندر الأكبر"، العلامة المقدوني "جوستيه ديلـشيف"، والأستاذ البلغاري "داميان جوريف" والرئيس المقدوني السابق "كـيرو جليجـوروف". وعـلى الـرف الموجـود فـوق البـار، يوجـد عـدد مـن براميـل النبيـذ المـصنوعة مـن البلاستيك الشبيه بالخشب. وتم إدخال صناديق مملوءة بـشاي الأعـشاب بيـنهم، أو على الأقل هكذا تقول الملصقات الموجودة عليهم والمدون عليها اسم نبتة "القديسة جون" والنعناع والزعتر والريحان.

يتوافق اسم تلك الاستراحة "نادي المصريين" تمامًا مع مظهرها!

تـم شـغل طـاولتين فقـط. عـلى واحـدة مـنهما جلـس رجـلان يلعبـان لعبـة الـ"التشيكرز" أو "الداما"، واثنان آخران يشاهداهما وهما يلعبان. بينما جلـس عـلى الطاولة المجاورة، رجل وحيد يرتدي معطفًا رماديًا دون أزرار فوق قمـيص مخطـط وبنطلون أبيض بحمَّالات ويرتدي طاقيـة بيـسبول عـلى رأسـه. كـان الرجـل يـدخن ويحتسي شيئًا ما من الكوب محدثًا صوتًا عاليًا وهو في حالـة مـن الـذهول والحـيرة دون أن يبـدي أي اهـتمام باللعبـة. أسرع بـاقي المـسافرين لـكي يحتلـوا الطـاولات الشاغرة الباقية، تقودهم السيدة ذات الأنف الحاد الذي يشبه المنقار.

- هيا بنا نجلس إلى جواره.

قال "هوريشيو":

- هل يمكننا أن ننضم إليك؟

- تفضلوا! لقد كنت أفكر في هذه اللحظة، كم سيكون لطيفًا لو تبادلت بعض الكلمات مع أهل بلدي؟

ظهر النادل في المشهد، وطلب "هوريشيو":

- زجاجة صغيرة من نبيذ "الإسكندرية" وزجاجة "كوكاكولا" له. وأنت؟

- مثلك.. سوف أتناول بعضًا من النبيذ، فالبعض يقول إن الأمور لا تسير على ما يرام مع القهوة، لكن اليوم هو يومي الاجتماعي.

- أنا سعيد حقًا لأننا التقينا. هلا طلبت منك شيء ما؟ هل تريد أن تعرف على سبيل المثال لماذا نقرع كؤوسنا ببعضها؟ نحن نفعل ذلك لأننا نريد لكل حواسنا أن تسعد. هل ترى لون النبيذ. تمامًا مثلما تشم باقة من الأزهار، وقبل أن تتجرعه تقرع كأسك من النبيذ لكي تسمع صوته!

قال الرجل:

- هذا رائع.

وضحك بصوت مرتفع.

- ليست بقصة طويلة، لكنها مُزحة طويلة. من أين أتيت؟

- من بعيد. البارحة صباحًا كنت في ألمانيا. ووصلت إلى "سلوفينيا" في المساء. والآن أنا هنا. لكي أتمكن أخيرًا من التحدث مع أحد أبناء وطني بلغتي الأم. فالإنسان يحتاج إلى بعض الحظ كذلك. في صحتك!

بعد تناول عدة رشفات من النبيذ، يصبح الإنسان أكثر مرحًا.

- رئيسي في العمل.. رجل استثنائي! لا أدري بالضبط كم الأرباح التي يجنيها لكن كل ما يمكنني أن أخبرك به هو أنه ملياردير! وهو يفهمنا جيدًا. ويفهـم عمالـه، فأنـا، عـلى سبيل المثال، يسمح لي بالعودة إلى بيتي كل عيد ميلاد على الرغم من أنهم لا يحتفلون به في التوقيت نفسه الذي نحتفل نحن فيه.

قال "هوريشيو":

- عندما وُلد مسيحنا، كان مسيحهم قد بدأ بالفعل يرضع ويبكي ويضحك، حتى المشي.. كان موهوبًا كما هي عادته.

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة عـلى مزحـة "هوريـشيو"، واسـتمر في سرد أحـداث قصته:

- لكن رئيسي في العمل وافق. وقال لي: "لقد أثبـتَّ أنـك عامـل مـاهر طـوال تلك السنوات. ولم تشتكِ يومًا ودائمًا ما كنت تعمل لأوقات إضـافية لـذا يمكنـك الذهاب إلى موطنك الأصـلي لتقـضي عيـد المـيلاد الخـاص بـك، إن واظبـت عـلى العمل بجد، فلن أمنعك يومًا من الذهاب". وقد أوفى الرجل بوعده. حيث يقوم بتحديد هدف معين لنصل إليه، فإذا ما تخطينـاه، وحققنـا هـدفًا أعـلى، يمنحنـا مكافأة مالية على الفور.

- هذا كل ما يهمني في الأمر.. النجاح! فالعمل يعني الربح. هكذا هو رئيـسي في العمل.

- أعتذر عن مقاطعتك، يا سيدي، لكن ليس من السهل أن تناقش موضوع الثقافة وأنت عالق في حظيرة.

- ما الذي تعنيه بذلك؟

- في عالم الحمام، إذا سمحت لي بعقد المقارنة، فالحمام القائد يظل طوال الوقت يتبرم من باقي الحمام حتى لا يحصلوا على حبة واحدة من الفتات. ولكنه يبقى جائعًا هو الآخر. على الجانب الآخر، في عالم البشر، يظل مديرك يشتكي كي يحثك على العمل طوال الوقت ويكنز هو الأموال.

- لا أوافقك الرأي، فرئيسي يدفع لي بسخاء. فأجري حوالي خمسة أو عشرة أضعاف أجرك.

أجاب "هوريشيو":

- هذا لا يدهشني بالطبع هكذا تسير الأمور الآن.

وأضاف بعد ما صمت قليلًا، متحدثًا لنفسه أكثر من الآخرين:

- لقد أصبحت اهتماماتنا الشخصية أكثر ما يشغلنا في هذه الحياة. نحن جميعًا نرتدي أقنعة الرحمة والتفهم والخنوع كي نكون قادرين على استجداء المزيد من المال. لكنك إذا ما نظرت بداخلنا، ستكتشف أن أرواحنا بائسة، نحن نحاول أن نقنع أنفسنا طوال الوقت بأننا مختلفون. النجاح؟ ما هو النجاح؟ هل تعتبر نفسك شخصًا ناجحًا؟

- أجل، بالطبع..

- حسنًا، أنا لا أعتبر نفسي كذلك. لطالما تمنيت ذلك.. أن أكون ناجحًا في الماضي. في مهنتي. فالنجاح سريع الزوال. فاليوم، ستشعر بأنك في القمة، وستجد الناس يلتفتون إليك في الشارع، ويلتقطون الصور التذكارية معك، والأهم من ذلك كله، أنك ستكون ممتلئًا بالثقة. ولكن، بعد مرور عامين أو ثلاثة، ستجد أن الأمر قد اختلف تمامًا، وأصبح في غاية الصعوبة وكل المكانة والتفوق والعلو قد اختفوا بلا أثر. فيتجنبك المخرجون أو يقدمون لك بعض الأدوار المهينة كي تؤديها. وتبدأ بالشعور بالشفقة على نفسك، وتقيم الحداد بسبب قدرك السيئ، وبأنك مجبر على العيش معتمدًا على الدخل الذي تحصل عليه من تمثيل تلك الأدوار الحقيرة في هذا المكان البائس في تلك الأوقات الغبية. وعلى الرغم من تمتعك بصحة جيدة، تجد نفسك وقد بدأت تجر قدميك من شدة التعب والإرهاق، وليس لديك المال الكافي لشراء هذا أو ذاك. وتصبح مضغوطًا بشكل دائم، وتبدأ بالصراخ في وجه الجميع وتتهمهم بأنهم حمير أغبياء وشيوعيون في حين أنك ليس لديك أدنى فكرة عن ماهية الشيوعية في الواقع. هذا هو بالضبط ما نعنيه بأن تكون ممثّلًا مقدونيًا اليوم ولهذا السبب أقوم بعمل إعلانات عن البيرة.

يشبه الأمر بروفة المسرحيات؛ تحوَّل الأمر بالنسبة له إلى حالة ما بدا فيها وكأنه يتحدث إلى أناسٍ هنا وليسوا هنا في الوقت نفسه. وهكذا بدأ حماسه للحوار ينكمش. وبدأ بالشعور بعدم الراحلة في جلسته، فأخذ يغيرها. أنهى الجميع مشروباتهم في صمت. بدا الرجل الآخر وكأنه يريد أن ينهي مشروبه وينتهي من الأمر كله.

قال "هوريشيو" للرجل:

- دعني أدفع ثمن المشروبات!

- لا يمكن أبدًا! أنا الذي سأدفع لـك ثمـن الـشراب، سـوف أدفـع ثمـن مـشروبك والمشروب الخاص بهذا الشاب كذلك، وللجميع، أما أنـا فيجـب عـلي الآن أن أعـود لمقعد القيادة.. إنهم في انتظاري في القرية.

صافح الجميع بلطف وبمودة مصطنعة. وعندما قام الرجـل واقفًـا لـكي يـستعد للرحيل، ساعتها فقط، لاحظ الجميع أن وجهه كان شاحبًا وأن هناك هالات سـوداء كبيرة حول عينيه.

قال "هوريشيو" فيما بعد:

- أنا أشعر بالأسف بشدة.

- لماذا؟

- لقد أحزنت الرجل. من وجهة نظري، يمكننا أن نقسِّم من هم بحاجة لمغـادرة هذا البلد إلى مجموعتين مختلفتين عن بعضهما تمامًا. المجموعـة الأولى، هـي الأكـبر والأوسع. وتتألف في الأساس مـن هـؤلاء الـذين تركـوا بلادهـم سـعيًا وراء الأفـضل. والمجموعـة الثانيـة، وهـي مجموعـة المهـاجرين الاقتـصاديين البـاحثين عـن وضـع اقتصادي أفضل.

أكمل قائلًا:

- ومقدونيا الوطن أعلنت استسلامها في أمرين شديدي الأهمية: التعلـيم وهجرة العقول، واللذان يترتب علـيهما النتـائج نفـسها. ففـي كلتـا الحـالتين

مقدونيا تخسر، ويُجبر أهل البلد والمواطنين على ترك أوطانهم من أجل الحصول على حياة أفضل. حيث يصبح المكان الذي تحصل فيه على لقمة عيشك هو موطنك. صحيح أن الجميع مشغول بمناقشة الأمور السياسة.. في البرلمان، وعلى الورق، وفي الحانات وحتى في غرف النوم.. إلا أن الواقع يقول إن شبابنا يهربون. يذهبون وإلى الأبد!

أتى "هويسو" على آخر قطرة من النبيذ في كوبه، لكن رغبته المحمومة وظمأه الكبير للنقاش والحوار لم يتركا لي فرصة كي أتحدث حتى كلمة "لكن" لم أستطع قولها.. ولو لمرة واحدة.

- على الرغم من ذلك، يا عزيزي، هناك مجموعة أخرى من المسافرين الأكثر ندرة الذين لا يتوقفوا عن السفر حول العالم حتى في تلك الأوقات التي نسب فيها ونلعن الأجور والتأشيرات المخزية والمهينة. سوف تندهش إذا ما علمت عدد الشباب الصغير - وغالبيتهم العظمى من الفقراء - الذين سافروا من بلدنا إلى الهند وكوبا والصين. لم أستطع أن أستوعب فكرة تغلبهم على العوائق المالية، ولكنهم نجحوا في النهاية. نعم يا عزيزي، من وجهة نظري فإن هؤلاء هم المسافرون الحقيقيون.. الحفَّارون.

- الحفارون؟ ما الذي تعنيه بذلك؟

- أجل، يا عزيزي، الحفارون، الذين يسافرون أفقيًا نحو الداخل.

ونحن في طريقنا للخروج من "نادي المصريين"، لاحظت أن ساحة انتظار السيارات لم تعد مثلما كانت عليه من قبل. والدي والمسافرون

وسائق "الميني باص" جميعهم مفقودين والسيدة ذات الأنف الحاد الذي يشبه المنقار مفقودة هي الأخرى. لا يوجد سوى قطار ضواحي صغير يقف أمامنا الآن، وهو يتكون من جرَّار وعربتين صغيرتين.



نفث القطار الصغير الدخَان بصورة مستمرة. سار بنا عبر المناظر الطبيعية الجبلية الرائعة المُغطاة بغطاء كثيف من الأشجار. كانت الجبال هادئة والقمم المستديرة مشجرة وخضراء لدرجة أنك لا تصدق أننا لسنا في فصل الربيع، ذلك لأن الطبيعة تبدو في أروع حللها وأوج روعتها فيه، على الرغم من كوننا في الشتاء.

- انظر إلى الجبال يا عزيزي. إنها الحقيقة الكاملة! تحتاج عدة ملايين من السنين كي تتحرك. ونحن البشر.. هنا بجوارها! ألا نبدو أكثر الكائنات عبوسًا ومشاكسة، دائمًا في عجلة من أمرنا؟ نبدأ شيئًا ثم نتركه سريعًا حتى لا نفقد الشيء الجديد. وهكذا طوال حياتنا!

فتح "هوريشيو" ذراعيه على وسعهما ورفع حاجبيه.. حركة قد يطلق عليها العديد أنها مثيرة للشفقة وعتيقة ولكنها تتناسب مع هذا النوع من الأشخاص بشدة.

- اركض، ثم اركض حتى يأتي يوم ما وفي لحظة ما، تتوقف. الرب وحده يعلم لماذا، ربما كي تنظر إلى إحدى الصور الفوتوغرافية، على سبيل المثال، صورة لهذا القطار.. سقطت سهوًا من ألبوم الصور الخاص بك،

وإذ بك تنظر إليها بذهول وتقول: "يا إلهي! هذا الطفل، إنه أنا! كم عدد السنين التي مرت من عمري هباءً، ولا سبيل إلى العودة إلى الماضي!".

أنصت إلى ما يقوله "هوريشيو" وقد بدا الممثل بالنسبة له أطول وأسمن، ولكنه لا يستطيع أن يدَّعي أنه قد فهم بالفعل كل ما قاله.

لم تكن العربة مقسمة، فكان هناك صف وراء صف من المقاعد الخشبية، وجميعها تواجه مقدمة القطار. ينحشر الأطفال في المقاعد، يبدون في الصف الخامس والسادس. كانت الفتيات أطول من الفتيان الذين كانوا يتخبطون ببعضهم البعض كسرب يلتف حول الفتيات بصورة تشبه ذكور النحل وهي تلتف حول ملكة النحل.



كانت هناك مجموعة من الرجال يحفرون بجوار سكة القطار. وكانوا جميعهم يرتدون الزي الرمادي الباهت نفسه. بعضهم ارتدى قفَّازات قذرة وممزقه في يديه. وقف كان الأطفال ملتصقين بالنوافذ بينما القطار الصغير يزحف ببطء شديد بين العمال.

- من هؤلاء العجائز؟

تساءل الرجل، بدا مضطربًا بسبب صوته ذي النبرة الطفولية العالية.

- هم.. كيف يمكنني أن أقولها؟ إنهم هؤلاء الناس الذين ارتكبوا أشياء خاطئة في حياتهم والآن عليهم أن يعانوا بسبب ما اقترفوه من أخطاء.

- هذا هو السبب وراء قيامهم بالحفر بمثل هذه الطريقة؟

- نعم، صحيح يا عزيزي، هل ترى هؤلاء الموجودين على هـذا الجانـب.. الـذين يرتدون قبَّاعات ولا يحفرون؟ الذين يحملون الأسلحة ويصرخون في وجه الآخرين؟

- نعم.. أراهم.

- هؤلاء هم الحراس. هم يتأكدون من أن السجناء لن يهربوا.

- هل يضربونهم؟

- هم لا يضربونهم وحسب، بل يحطمون عظامهم من شدة الضرب. يمر وقتهم ببطء شديد. إنه لعمل شاق أن تضرب الأرض الصلبة لتكسر الصخور كل يـوم. يـوم وراء يوم من الفجر وحتـى الغـسق، بواسـطة فـأس. لدرجـة أنـك تحلـم بـأن ترقـد لتستريح لبعض الوقت، ولكن يجب عليك أن تبقي عينيـك مفتـوحتين لأن الحـرَّاس الذين يراقبونك مثل الصقور، يبقون في انتظار أن تنهار حتى ينقضوا عليك كفريسة على شفا الموت.

كانت خدود أحـد المتهمـين، جوفـاء وغـائرة، يرفـع عينيـه كي ينظـر إلى القطـار الصغير. يمكنه رؤية ظلال سوداء حول عينيه وفرع نحيـل مـن شـجرة الكريـسماس برزت من الجيب العلوي الخاص بزيه الرث. لماذا يذكِّره هذا الرجل المعذب البائس بأبيه؟



- الفسيولوجيا البشرية ليست على ما يرام، يا عزيزي.

- ما هي الفسيولوجيا؟

- الفسيولوجيا هـي مـا يعلمـه لـك جـسمك. وتتجـسد في اسـتيقاظك في الصباح بعد حصولك على قسط وافر من النوم: مستريح، ومنـتعش، وهكـذا، تفرك عينيك وبعدها.. يعطيك شيء ما بالأسفل إشارة! وتشعر بحاجـة ماسـة للتبول. ما الذي يمكنك أن تفعله؟ عليك أن تـذهب للحـمام كي تتبـول، شيء ولا بد منه.

تقفز من السرير، ليس على قدمك اليسرى ولكن على قدمك اليمنـى. لتكتـشف أن فردة شبشبك اليسرى مفقودة. مختفية تحت السرير. تجثـو عـلى ركبتيـك بحثًـا عنها وتخبط رأسك بشدة في حافة السرير.. ليوقظك الألم بالكامل.

- هل تقسم على ذلك؟ كل ما أردته هو أن تـذهب للحـمام كي تتبـول فـإذا بكـل هذه الأحداث تفسد مزاجك الجيد...وبينما أنت تناقش أحلامك، يجب علي أن أخـبرك بـشيء، أننـي قـد شـكوت ذات مـرة لإحـدى صـديقاتي الـصغيرات اللطـاف (وأكَّـد "هوريشيو" على كلمة صديقاتي) أنني لا أستطيع النوم ليًلا وأن الأمر يزداد سوءًا شـيئًا فشيئًا هل تعلم بماذا أخبرتني؟

- ماذا؟

- لا يمكنك أن تنام لأن عدد سنين عمرك قد تعدت مقاس حذائك! تخيَّل هذا يا عزيزي، وقد قالتها بمنتهى الصراحة! ولكنني أجبت بسرعة كافية: لكن مقاس بنطالي لا يزال أكبر من عمري، ها ها ها.

"هل هذا كله بسبب كونك سمينًا؟". هذا أول ما ورد على خاطره، لكنه شعر بالإحراج لأن تلك الجملة الوضيعة هي أول ما خطر بباله. وساعتها فقط، وهو يبعد ناظريه عن "هوريشيو"، لاحظ أنهما لم يعودا داخل القطار الصغير، وأن التلاميذ والمساجين والجبال كلها قد اختفت.



وحينها، كان في الغالب سيقول:

- ولكنني أعرفك! أنا أتذكرك جيدًا على الرغم من مرور وقت طويل، فأنا أتذكر أنني سافرت معك منذ عدة سنوات. أنت تشتغل بالتمثيل. وأنا أتذكر اسمك، هذا غير عادي... "هوريشيو".

- "هوريشيو سفيكالو" هو اسمك.... وقد التقينا لأول مرة عندما كنا أطفالًا صغارًا في قطار صغير خلال إحدى الرحلات المدرسية، أليس غريبًا أن يحدث هذا في مثل سني، فأنا الآن أصبحت جدًا لثلاثة أحفاد، وزوجة ابني - زوجته الثانية - حامل مرة أخرى بحفيد آخر. أليس هذا غريبًا أننا نلتقي مرة أخرى بهذه الطريقة؟ ولكن أنت.. أنت كما أنت! لم تتغير؛ الشارب نفسه، ولا علامة واحدة من علامات التقدم في السن تبدو عليك!

- حقًا؟

- وصوتك لا يـزال كـما هـو. مميـز جـدًا! إلا أننـي في حواراتنـا ومناقـشاتنا، قـد تحدثت معك بثلاثة أصوات مختلفة: صوت طفل، وصوت شاب بالغ، والآن بصوت - كيف يمكنني أن أقولها؟ - شخص بالغ وناضج. واسمك هو "هوريـشيو سـفيكالو" هل أنا على صواب؟

- نعم، أنت على صواب.

شعر بأنه في حاجة إلى أن يهرش في رأسه كأن رأسه مملوءة بالقشرة عـلى الـرغم مـن أن الـشعر الوحيـد البـاقي في رأسـه هـو الـشعر الموجـود في مـؤخرة عنقـه! لكـن، وجـه "هوريشيو" ما زال رقيقًا بسبب ابتسامته العريضة الصريحة.

- ابتهج يا عزيزي! لماذا هذا الوجه الكئيـب؟ وإن كنـا بالفعـل قـد تعرفنـا عـلى بعضنا البعض منذ فترة طويلة، فلماذا تعاملني بكل هذه الرسمية؟

- اعتقدتُ.. لقـد حـل الظـلام بالفعـل.. وأنـا لا أسـتطيع أن أرى بـصورة جيـدة بنظارتي هذه، لقد كان من المفترض أن أغادر منذ وقت طويل.

- لا تقلق يا عزيزي، لا يوجد سيَّاح هنا، ولا سفاحين.

- وأين نحن الآن يا سيد "سفيكالو"؟

لكن "هوريشيو" كان قد اختفى. ما الذي يحدث لي؟ لقد كنا معًا منذ لحظـة وحتـى الآن، وفجأة، لم يعد موجودًا. قد يتحوَّل إلى شيء آخر مختلف عمَّا توقعته. وكـأنني كنـت أعيش حلمًا سريعًا. أولًا، المضارع، وبعدها الماضي، والآن هـذا؟ وإذا حكمـت عـلى الأمـور من منطلق سني، لا بد أن هذا هو المستقبل.



سيواجه وحدته بصحبة أحد المنـاظر الطبيعيـة الموجـودة في القـصص الخرافيـة التي تُقدم في هوليوود باستخدام الأضواء الـصناعية التـي تجعـل الأمـر يبـدو وكـأن الليلة القادمة قد توقفـت. ستـصبح حـدود الـشجيرات المزدهـرة بـالورود الحمـراء والبيضاء مرئية، وعيون في لون العنبر تلمـع بـين تلـك الـشجيرات؛ ربمـا هـي عيـون القطط السوداء أو الذئاب الضارية؟! سيهيم على وجهـه تائهًـا في حـارات وممـرات القرية المغطاة بالغبار السميك المحترق بحيث ترفع كل خطوة من خطواتـه سـحبًا صغيرة من الغبار.

- أنت أيها الغبي العجوز. أنت أيها النفاية!

سوف يسمع صوت يشبه الزمجرة، وسيسمع صوت أقدام خارجًـا مـن تحـت الأرض. بعدها، سيرى طيف أو شبح ويشعر بحضوره المفاجئ الذي يشبه برودة القـبر. وسـيكون رأسه وجسده مغطيان بمعطف تنبعث منه رائحة نتنة. وسيمد ذراعه الأيمن لكي يشير له بأن يتبعه. وعلى الرغم من الخوف المروع الذي يجمد أوصاله مـن رأسـه وحتـى أخمـص قدميه، سوف يتبع ذلك الشبح بصورة تلقائيـة مثـل "الإنـسان الآلي" عـبر ممـرات القريـة وطرقاتها.

هذه الحارة، ستكون نصف مرئية في ضوء القمر الصناعي الشاحب، والمؤدي إلى المقـبرة، حيث صور الظلال المحلقة للصلبان والمقابر الشائكة في الأرض الغامضة، لن يتسببوا سوى في شعوره بالمزيد من البرودة في جسده المتيبس. وسوف يتسلل الشبح بصمت إلى الداخل عـبر البوابة شبه المفتوحة للمقبرة.

بعدها، سيجر نفسه إلى هناك، وهو يتمايل. حينهـا، سـيتوقف الـشبح وسيـشير بإصبعه العظمي الطويل إلى نقش ما موجود على مقبرة مجهولة. وسيقرأ اسمه على الحجر:

- لا...لا...لا...

سوف يتلعثم وفكه السفلي سوف يرتعش بلا سيطرة.

- سوف تتعفن!

سوف يسمع مجددًا صوت دمدمة قادمًا من القبر.

بعد ذلك، ووسط كل ذلك الجنون، سوف يخرج من الظلام كائن ضـخم مغطـى بالشعر. وسيقترب منه وهو يزمجر ومخالبه ممدودة، ويعرج على قدميه. كـل هـذا سيكون كثيرًا جدًا عليـه. سـوف يـصرخ ويهـرب، وسـوف يتعـثر ويـسقط، سـيحاول الهرب بعيدًا بأقصى سرعة ممكنة من هذا المكان البشع، لكنه أخذ يصيح في خـوف ورعب. وستظهر يد خفية، لكنهـا لا تنتمـي للـشبح!!! وسـوف تجـبره عـلى العـودة وسيرى دبًا يضرب الشبح ضربة واحدة بمخلبه. يسقط على إثرها الشبح عـلى الأرض ويختفي في التو. أمَّ هو، فسيستمر في الهرب، لكن الدب سوف يطلب منه أن يعود.

- توقف يا بني! إنه أنا.

سـيتعرف عـلى الـصوت وينتظـر. وسـيقترب منـه الـدب الـضخم وهـو يلهـث لكنــه لــن يكـون ضـخمًا مـثلما بـدا في المـرة الأولى. سـوف يـسقط قنـاع الـدب

ويظهر وجه أبيه مـن تحتـه وسـيمًا ومهنـدمًا كـما كانـت عادتـه دومًـا وبجـوارهما سيظهر "هوريشيو" لكي يخبره بصوته الجهوري الجذاب:

- أنت تعلم أن الإنجيل قال: "لو كان للفرد الإيمان بمقدار حبة من خردل، لقـال للجبل: انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولما عجز عن شيء".

وسوف يشعر أنه خفيف كالريشة، وسعيد كـالملاك، وجميـل كطفـل في الـصف الأول. بهذا المزاج المتفائل سيسمع صوت الجرس وهو يدق.

- ما اليوم؟

يجيبه والده و"هوريشيو" في صوت واحد متناغم:

- إنه عيد الميلاد!



وإذا به يحتضن والده، ويبكي ويضحك في الوقـت نفـسه. ويحملـق في الـسقف لبعض الوقت وهو حرفيًا في حالة من التوهان: ما هو اليـوم؟ وأيـن أنـا؟ وكـم أبلـغ من العمر؟ ثم بدأ ينظر حوله. فالسرير سريره. والحجرة حجرته. ونسيم شهر مـايو المنعش يتسلل عبر النافذة المفتوحة.

- يا لها من فوضي. أنا لم أحلم قط في حياتي بمثل هذا الحلم.

اتجه إلى النافذة وبدأ يستنشق الهواء عدة مرات بعمق. لكنه ما زال يشعر بالنعاس. حدَّق في الكتلة الخضراء التي تكسو جبل "فودنو". بدا الجبل وأنه قد اقترب من المدينة.

فجأة تذكَّر: كان عليه أن يكون في محطة الأتوبيس البري بحلول الظهيرة لكي يلحق بالأتوبيس في تمام الساعة 12:15. لم يكن أتوبيسًا، في الحقيقة؛ حيث إن الموظف الطيب في وكالة السفر أوضح له بأنه "ميني باص" حديث يتوافق مع المعايير الأوربية الحديثة.

- "ميني باص".

قالها وهو يحك فروة شعره الفوضوي.

- يبدو الأمر مألوفًا بالنسبة لي.

ظل يهرش في رأسه، ثم ذهب بعد ذلك إلى الحمام لكي يغتسل كما هي عادته كل صباح.



القصة السادسة

شقيقة "مارجان" الصغيرة





"يجب ألا تُروى أحداث هذه القصة الخيالية في أعياد الميلاد".



عندما وضعت أمه شقيقته الصغيرة في اليوم السابق لليلة عيد الميلاد بنيويورك، كان "مارجان" يبلغ من العمر ثلاث سنوات. وبينما أمه في المستشفى، ربط "مارجان" الطاولة والكراسي الموجودة في المطبخ معًا بالحبل، وفعل الشيء نفسه مع شجرة الكريسماس، ثم ربطها بسريره. ما من مرة حكى فيها والديه ما فعلها ليلتها لأصدقائهم، إلا وانتابتهم نوبة من الضحك.

بعد مرور عامين على تلك الحادثة، عادت والدة "مارجان" مرة أخرى إلى المستشفى. وتلك المرة بسبب "بعض الأسباب النسائية". وبالمصادفة، حدث هذا الأمر قبيل حلول ليلة عيد الميلاد في نيويورك. ولكيلا تفسد الأم إجازة الأطفال، أعدت لهم الديك الرومي المشوي المحشو بالكبد والتفاح والزبيب قبل توجهها إلى المستشفى.

أُجريت لها العملية بنجاح، حمدًا لله، وفي يوم 31 من شهر ديسمبر، أحضر لها والد "مارجان" قطعة من لحم الديك الرومي الملفوفة بعناية في طبقها المفضل وأحضر لها كذلك باقة من الورود الصفراء التي تحبها.

تُرك الطفلان وحدهما في المنزل في ذلك اليوم لكي يلعبا. وعندما عاد والدهما من زيارة الأم في المستشفى، وفي اللحظة السابقة لدخوله المنزل، استطاع أن

يسمع صوت ابنته الصغرى وهي تبكي. اقتحم الرجل المنزل بسرعة ليجد "مارجان" يجر أخته الصغيرة في أرجاء المنزل وقد لف حبل حول عنقها.

قرر الوالدان بعد تلك الحادثة أن يتخلصا من كل الخيوط والحبال الموجودة في المنزل. وقاما بالفعل بتنفيذ هذا الأمر بسرية تامة، كي لا يضايقا ابنهما. صحيح أنهما نفذا ما خططا له، لكنهما لم يستطيعا منع "مارجان" من التبرم والضيق.

ظل "مارجان" يفتش كل الأدراج والأرفف التي يمكنه الوصول إليها بحثًا عن حبل أو خيط قبل أن يقوم في نهاية المطاف بطلب الحصول على حبل من والديه. صرخ "مارجان" في وجهيهما وقال:

- سوف أذهب لأشتري واحدًا إن لم أجده هنا!

وبعدها بفترة هدأ فجأة وتوقف عن طلب الحصول على حبل.

كانت ليلة عيد الميلاد التالية تقترب. كانت عائلة "مارجان" تعيش في منزل محاط بحديقة، ورغم أن الأب لم يكن بستانيًا ماهرًا، إلا أن الشجيرات المفرطة في النمو والشجر المهمل كانت تمنحه بعض الراحة النفسية والاسترخاء والانتعاش عندما يمتلئ جو المنزل بالإزعاج والاضطراب.

كانت شجرة الصنوبر هي أطول الشجيرات في الحديقة، لذا قرر الوالد أن يزينها بالأضواء، والحلي والهدايا للإجازات القادمة كي يسعد الأطفال. وعندما صعد فوق أحد الكراسي لكي يعلّق اللعب، لمح "مارجان" وهو

مستلقٍ على الأرض هامدًا بلا حركة، وعنقه مربوط بحبل في "درابزين" سرير شقيقته.

سأل الوالد نفسه: "أين وجد "مارجان" هذا الحبل؟" أربكته الفكرة. على الفور جرى نحو الغرفة. كان "مارجان" ما زال مستلقيًا على الأرض، بلا حراك، وعينيه مغلقة، ولكنه كان يتنفس. تظاهر والده بأن شيء لم يحدث وترك الغرفة بهدوء وسبابته فوق شفتيه لكي يعطي بقية الأسرة إشارة بأن يحافظوا على هدوئهم. استمر "مارجان" في نومه على الأرض قبل أن يقوم أخيرًا من مكانه، وهو يشعر بالغضب ويفك الحبل عن عنقه ويدسه في الدرج.

بعد مرور وقت طويل، أصبحت شقيقة "مارجان" شابة ناضجة. وفي إحدى الليالي، حلمت بأنها رأت خيال شيء ما في غرفتها. فقامت وحاولت لمسه في الظلام. بدا وكأنه ثوب مصنوع من الصوف الخشن، أو كأنه مصنوع من حبال أو شيء من هذا القبيل. وبعدها حلمت بأنها حاولت أن تصرخ بصوت عال قائلة: "مارجان" أنا أحبك!". استيقظت بعدها وهي غارقة في عرقها.

وفي الصباح، أخبرها زوجها انها ظلت تصيح في نومها قائلة: "مارجان"، أرجوك!". لعل لسانها قد تثاقل، كما يحدث عادة في الأحلام. فبدتا كلتا العبارتين متشابهتين.

رأت ذلك الحلم المفزع في الكريسماس، وقبيل عيد ميلادها، وبعد مرو عام على وفاة شقيقها الأكبر بطريقة مأساوية.

القصة السابعة

الصيَّاد





"يجب ألا تروى أحداث هذه القصة - الخيالية أثناء تصفح المجلات النسائية".



"من الحقائق المعروفة أن الألم الذي يسببه لنا أولئك المقربـون لنـا لا عـلاج لـه إلا إذا حوَّلناهم إلى غرباء. حينها، لا عزاء سوى لمن تم محوهم من الذاكرة".

- كريستا وولف، "كاسندرا"



عطر الغابة. رائحة البارود.. وبالتأكيد رائحـة المـوت.. كـم هـم مثـيرين! يطـارد الصياد الحيوان ثم ما يلبث أن يتوحد معه، ليصبح بعـد ذلـك جـزءًا مـن الطبيعـة، وبالتالي، جزءًا من الكل. ويصبح الرابط الـذي يـربط بيـنهما راسـخ لا انفـصام فيـه: الرصاصة. حينها يبدأ الحيوان في فهم الـصيَّاد وتنـشأ بيـنهما رابطـة عاطفيـة قويـة. وهي، تقريبًا، نوع من أنواع الحب. فتقول له الفريسة:

- أنا الفريسة المطبوعة صورتها في عينيك وفي مركز هدفك. لقـد جئـت إلى هنـا لكي تجدني وتحررني.

كل شيء يبـدو هادئـًا والـشمس المـشرقة تـسكب ضـيائها عـلى المنـاطق الممهدة. في الغابة تستطيع أن تسمع صـوت الحيـوان وهـو يتـنفس لدرجـة

أنكما أنتما الاثنان تبـدوان أثنـاء عمليـة الـصيد وكـأنكما تقفـان عـلى الحـد الفاصل بين مملكتين؛ مملكة الأرض ومملكة السماء. ثـم تـسحب أنـت بعـد ذلك الزناد.

في تلك اللحظة تتجلى روعة الصيد، متجسدة في تلك التغـيرات الإيقاعيـة للحياة والموت. مُنحت أنا مـن قبـل الطبيعـة دور الـصياد، ومُنحـت الغزالـة المسكينة دور الفريسة، وعندما تبدأ لعبة الصيد، نتصرف نحن الاثنين وكأننـا وحدنا في الغابة.

هؤلاء الذين اختبروا قوة الغابة لن ينسوها أبدًا! لما لها مـن قـدرة كبـيرة عـلى إثـارة الخـوف والرعـب في نفـوس الكثـيرين مـنهم بحيـث تـصبح كـل مواجهة حقيقية مع الغابة أمر يجمد الدماء في العـروق. فهـم كلـما سـمعوا صوت خشخشة ما، تخيلوا وجود وحش متعطش للدماء مختبئ خلـف كـل أجمة أو شجرة.

لكن، هناك البعض الـذين وقعـوا بالفعـل في حـب الغابـة، بأشـجارها وظلالهـا، وقاطنيها وضوضائها. فالغابة هي مملكتي. لأنها شـحذت حـواسي بـصورة جعلتنـي قادرًا على الجري لمسافات طويلة عند الضرورة وتسلُّق الأشجار برشاقة حتـى أصـل للفروع العليـا، وعبـور النهـر في قفـزة واحـدة والـسباحة في بحـيرة الجبـل في الـبرد القارص. ليس هناك فريسة سريعة جدًا أو قوية جـدًا أو بعيـدة المنـال عـلي. سـواء كانت أرنب بري، أو دب، أو خنزير بري، فأنا أمتلك دومًا زمام الأمـور، ومجمـوعتي من الغنائم التذكارية المحنطة تزداد باستمرار.

أنا فقط أندم على أن الفرصة لم تُتَح لي أبدًا لكي أصطاد وحيد القرن. يقال إن قرنيه يساويان ثروة. فالصيادون يقتلعون قرون وحيد القرن ويطحنونها ويقدمونها على أنها منشطات جنسية لراغبي المتعة. وتجد الناس على استعداد كامل لدفع الملايين من أجل الحصول عليها.

إن أفريقيا، على الرغم من أراضيها الشاسعة والغنية بالصيد، لا تزال بلدًا نائيًا - أو بالأحرى قارة نائية ومعزولة، لكنني، في نهاية المطاف، رجل ينتمي إلى ذلك المناخ وفرائسه.

فأنا صياد بالفطرة تمامًا، كما أنني منعزل بالفطرة: شخص مكتفٍ بذاته في كل الظروف والمحن التي مررت بها. أو هكذا كنت أعتقد قبل أن ألتقيها.

قبلها، حتى عندما كانت هناك امرأة ما في حياتي، لم تستمر علاقاتي العاطفية طويلًا أبدًا، بل كانت أطول علاقة تستمر لأسبوع أو أسبوعين على الأكثر، وعادة، كانت تبدأ تلك العلاقات خلال أشهر الشتاء عندما كانت الرغبة في البحث عن شريك تحرك الصيادين بالقدر نفسه الذي تتحرك به رغبات الذئاب والثعالب. لطالما وجدت الأمر سخيفًا عندما كانت تتم مناقشة فكرة إقامة علاقات عاطفية في فصل الصيف. لأنني أكون دومًا مشغول بالصيد.

ففي شهري يوليو وأغسطس، يكون العمل على أشده لدرجة أن موضوع النساء كان آخر شيء يشغل بالي. فلو أنني أطارد شيء ما في ذلك الوقت، فاعلم أنه - بلا شك – أحد الحيوانات، وإن لم أكن أطاردهم فإنني أراقبهم وأتابعهم وهذا بالطبع أمر يتطلب احتفاظي بكامل طاقتي، وليس تبديدها بالانغماس في الشهوات.

هكذا كنت وكانت حياتي قبل أن ألتقيها.

كما ذكرت من قبل. أنا لست مغرمًا بالمراسم؛ سواء كانت حفلات الزفاف أو مثيلاتها من التجمعات. لكن منصبي "كصياد ملكي" كان يُحتِّم عليّ تقديم تقرير أسبوعي عن عمليات الصيد التي تتم للبلاط الملكي. في ذلك الوقت، كان الملك ما زال المتحكم بمقاليد الحكم في البلاد. وقد نلت شرف هذا المنصب عندما أصبح الملك أرملًا، وبعدها لم يعد كما عهدته؛ أصبح شاردًا وتائهًا، وهو ما لا يليق بملك. أصبح الملك شارد الذهن طوال الوقت. وأصبح يفضل استنشاق الهواء العليل البارد خارج القصر عن الهواء الموجود داخل غرف القصر المدفئة. على الرغم من كون قصره واحدًا من أكثر القصور روعة في تلك الأنحاء من العالم. وأن يرتدي الجينز والتيشيرتات مقاس "دبل أكس لارج" الباهتة.

كان القميص الذي يرتديه محشورًا في حزامه المربوط فوق بطنه من الأمام ومرفوعًا قليلًا من الخلف. وكان يجلس طوال اليوم في حديقة القصر بين أشجار الفاكهة ونبتات الطماطم. وهناك كان يستقبلني وهو منشغل بتقليم وروده أو أثناء جلوسه على كرسي خشبي دون ظهر وهو يحفر في الأرض. كان يستمع إلى تقاريري عن حالة الغابات الملكية والأراضي المخصصة للصيد وهو شارد الذهن.

أحيانًا، كان يطلب مني في هدوء أن أروي له قصة عن شيء حدث لي بالفعل في الغابة. وكان ينصت إلى تلك القصص وهو شارد الذهن تمامًا كما هو الحال بالنسبة لتقاريري الرسمية. لدرجة أنني كنت أشعر في بعض الأحيان أنه لا

ينصت إلي على الإطلاق، لكنني كنت مخطئًا. فالحكاية التي قصصتها عليه عن الأرنب البري كانت ممتعة حقًا. (كنت أروي له كيف أن الأرانب البرية تحرك أنوفها باستمرار عندما يطعمون الصغار وعندما يستريحون).

- وأنت تقول إنهم يحركون أنوفهم الصغيرة طوال الوقت.

- نعم! إنه الوعي الذي يعمل حتى عندما يبدو العقل غير نشط.

قد يقاطعني أحيانًا بهدوء، دون النظر إلي. لكم رجوت أن أختلف معه في الرأي لأن عقلي كان دومًا يعمل بنشاط عندما أصطاد، إلا أنني كنت أشعر بالسعادة عندما أجده مستمتعًا بقصصي عن الصيد رغم حالة شرود الذهن التي كان يعاني منها.

لاحقًا، عندما تعاملت مباشر مع الملكة، خصوصًا بعد وفاته، خطر على بالي أن هذا الملك كان شاردًا وغريبًا وهو يتحدث معها، أقصد هنا زوجته الثانية المثيرة، وأنه كان غير سعيد بسبب ذلك. كانت هذه مجرد أفكار عابرة وردت على خاطري لأنني كذلك كنت عالقًا وسط إعصار عندما قامت تلك المرأة الفاتنة صاحبة الذكاء المتكبر الأناني بإحكام فخذيها الدافئين حولي.

لقد كان التأثير الذي مارسته علي رهيبًا! سارت الأمور بيننا وفق قاعدة منطقية غاية في البساطة. واحد وواحد يساوي اثنين. حيوان، طلقة رصاصة، فريسة، الغابة، شروق الشمس، غروب الشمس. لكن كيف يمكن لتهويدة رقيقة كهذه أن ترسلني في نوم عميق وأنا الصياد الذي طالما

اعتاد أن يغلبه النعاس وهو بجوار نار مخيمه المنصوب في المنطقة الممهدة في الغابة والذئاب التي تعوي من حوله في الغابة. كنت أستغرق في نوم عميق ومع هذا كنت دومًا يقظًا، فبندقيتي ترقد دومًا إلى جواري وسبابتي دومًا على الزناد. عندما استيقظت في الصباح، كانت النيران ما زالت مشتعلة ولكن الذئاب كانوا قد رحلوا منذ وقت طويل.

لكنني لم أعد الرجل نفسه الذي كنته، ليس منذ أن جعلتني ملتصقًا بها وكأن المئات من المغناطيس الساخنة تجذبني إليها. منذ اللحظة التي انغرز فيها مخلب الدب في لحمي، سواء كلطمة أو كضربة قوية، تاركًا جرح غائر في جسدي. هكذا كان حبي لها يمزقني كمخلب دب! فبمجرد استيقاظي في الغابة، يتملكني التفكير فيها وفي كيفية العودة إليها بأقصى سرعة ممكنة.

ما الذي سأشتريه لها كهدية اليوم؟ دهن الدب لكي تدلك به عنقها ووجهها لتختفي التجاعيد وتبدو ملساء؟ إذا ما واتتني الفرصة وسمحت لي بقضاء الليلة معها في غرفة نومها، ففي الصباح التالي، وأنا خارج من القصر خلسة، كالعادة، وأقفز من فوق السور المليء بالرؤوس المعدنية المدببة، سأحاول بجنون أن أتخيل التفاصيل الخاصة بموعدي القادم معها.

يأتي الصباح مشمسًا وهادئًا، على عكس السماء الموجودة بداخلي والتي تتمزق بسبب البرق والعواصف، وتسيطر علي فكرة واحدة وهي؛ متي سألتقي بها مرة ثانية؟ كنت مخمورًا ومهووسًا بها! أمَّا هي فكانت تمارس ألاعيبها معي. فعلى سبيل الفكاهة، كانت تطلب مني أن أمضغ

وأبتلع بعض من الزهور التي قطفتها لها من مروج الغابة. أو تـأمرني بـأن أتـصرف مثل حيوان الغرير طوال اليوم، وأن أحضر لها خفَّيها بفمي، وأن آكل من وعاء على الأرض وذراعاي خلف ظهري.

في الوقت الذي كنت أحظى فيه بحـواراتي – التـي أتحـدث فيهـا وحـدي - مـع الملك عن الأرانب البرية والطماطم، لم أكن قـد التقيتهـا بعـد، ولم أكـن لأتخيـل مـا أصبحتُ. كما قلت من قبل، كنت شخصًا مختلفًا حينها.. حرًا مـن كـل مـا هـو غـير ضروري. كل تركيزي كان منصبًا على الصيد. لكنني في بعـض الأوقـات كنـتُ ألتقـي بابنة الملك الصغيرة.. "سنووايت" أثناء جلوسي مع أبيها في الحديقة.

كانت الفتاة الصغيرة خليطًا من اللون الأبيض والـوردي. وكانـت شـفتاها تـشبهان "الفراولة"، وعيناها كبيرتان وبريئتان مثل عيون الظبية. وقلبها نقـي كقطـرات النـدى التي تنزل على أشجار الصنوبر بالغابـة. وحتـى الآن، عنـدما تـدور الـذكريات في رأسي كزوبعة مخيفة، أجدني أشعر بالراحة والهدوء وتجد الابتـسامة طريقهـا لـوجهي كلـما تذكرت "سنووايت".

كانت الفتاة تشبه الحمامة البيضاء، لطيفة لكنها دائمة الحركة وأكثر فضولًا مـن والدها. لا يمكنها أن تجلس ساكنة للحظة واحـدة. فهـي طـوال الوقـت تتنقـل مـن مكان إلى مكان، ولا تمل ولا تتعب من توجيه الأسئلة لي:

- عمـو الـصيَّاد. لمـاذا يأكـل نقَّـار الخـشب البنـدق؟ لمـاذا يقـول النـاس هذا الشخص يمتلك عيون القط البري؟ لماذا تنام معظم أنـواع الدببـة طـوال الـشتاء؟ عمـو الـصياد، هـل تغنـي الطيـور الـسوداء عـادة في تمـام الرابعـة

والنصف من كل صباح؟ أو قد تجلس وتضع إحدى ساقيها على الأخرى على السور الحجري المنخفض الموجود في الحديقة، تغني أغانيها بصوت واضح نقي صافٍ. ورأسها ونظراتها متوجهة نحو الأعلى كما لو كانت قد بدأت حوارًا بالفعل مع طيور وجنيات الغابة.

كيف خطر على بال الملكة، وكيف صوَّر لها عقلها المشوه أنني قد أكون مريضًا لدرجة أن أرفع يدي لأقتل هذا المخلوق الجميل والرقيق؟ هل تصورت أنني أبله ومغفل لدرجة أن أخطئ الفتاة الصغيرة وأنظر إليها باعتبارها خنزيرًا أو أرنبًا؟ يا لها من روح عفنة وشريرة! لكن من ناحية أخرى، ألم أتصرف أمامها كالأبله. أو كمصارع مطيع مستعد للتضحية بكل شيء من أجل عشيقته؟ فتأثيرها علي كان رهيبًا ومهولًا منذ اللحظة التي عرَّفني فيها الملك على الملكة الجديدة، ونحن في الحديقة أثناء استماعه لتقاريري وهو شارد الذهن. في البداية تفاجأت عند رؤية اثنين من البالغين بين شتلات الطماطم في الحديقة بدلًا من الملك وحده، فقد اعتدت رؤيته إمَّا بمفرده وإمَّا بصحبة "سنووايت".

سمعت الخادمات ذوات المؤخرات الكبيرة وهن يثرثرن ويقلن: "إن الملك مأخوذ بجمال الملكة الجديدة وإنها قد نجحت في أن تلفه وتضعه خاتمًا في إصبعها منذ اليوم الأول، جاعلة إياه يرتعش أمام كل كلمة تقولها". على أنني يجب عليّ أن أعترف بأنني وجدت ذلك سخيفًا ومضحكًا. جعلني أتخيل الملكة الجديدة على هيئة "ميدوسا" برأسها المليئة بالثعابين، تطارد الملك البدين عبر غرفات القصر بصوتها الحاد.

ولكن ما رأيته أمام عيني كان مختلفًا تمامًا: فجسد المرآة الذي يقف أمامي عاريًا، على الرغم من ارتدائها لفستان قطني. لطالما اعتقدت أن النساء الإسبانيات هن فقط اللاتي يمتلكن مثل هذا الجمال الفائق الذي لا يُقاوم، أو على الأقل، سمعت بذلك. على الرغم من أنني لم أرَ مثل هذا الجمال قبل أن أراها. جمال يتوِّجه شعر أسود بري جامح رُوِّض في كعكة مستديرة، لها عنق طويل وملامح شاحبة، ونهد وثاب يرقص لأقل حركة. كان صوتها هادئًا ورصينًا ورخيمًا ومختلفًا تمامًا عمَّا تخيلته. ولكنني عندما انحنيت لتحيتها، بدت عيناها سوداء داكنة وهادئة، ولكن وسط كل هذا الهدوء، يمكنك أن ترى نارًا بداخلهما. نظرت إلى من أعلى، تقيسني وكأنني عبد معروض في سوق النخاسة. لكن عينيها كانت في الوقت نفسه فضولية ومفعمة بالحيوية والنشاط وممتلئة بعدوانية أنثى الحيوانات.

بعد انقضاء أول لقاء بيننا، قضيت فترة ما بعد الظهيرة في الغابة كالعادة، جذبت روائح الحيوانات حواسي المشحوذة. لكنني لم أستطع الصيد. لم أستطع حتى أن أتحرك من مكاني. وكأن رأسي قد ضُرب بحجر سقط من السماء وارتطم بالأرض.

شعور بالخواء لم يكن مألوفًا لي. جاءني مصحوبًا بضربات عنيفة متتالية للقلب، تركتني في حالة من الدهشة. وعندما بدأت الطيور تعود إلى أعشاشها، كنت ما زلت جالسًا على جذع شجرة، أجتر المرارة الجافة التي كانت تتسرب أسفل حلقي. لم أستطع التعرف على نفسي. لقد غزتني تلك المرأة بواسطة قوى غيابها الساحقة. فهواء الربيع المشرق، والعدد اللا نهائي من النجوم اللامعة، بدت وكأنها تخترق صدري بشكل مباشر

بضوئها، مما ولَّد بداخلي شعورًا مريضًا بالشوق الجامح إليها. هذا التـدفق الحيـوي لينابيع الشوق، ذلك الصوت الباعث للحياة الذي اعتاد على تحريك ومـلء عـضلاتي بالطاقة المبهجة، ألقى بي الآن في آتون سبات مخدِّر، وتـصلُّب عقـيم، كـل مـا كنـت قادرًا على القيام به هو التحديق في كـل مـا هـو أمـامي، دون ملاحظـة أي شيء، أو رؤية أي شيء.

وتمامًا، كما مُحيت تلك المناظر الطبيعة - التي كنت معتادًا على تتبع أصغر تفاصـيلها - مُحيت من أمامي الآن، وذلك الفضاء الموجود في رأسي كان فارغًا إلا من فكرة واحـدة - هذا إن كان من الصواب أن يُطلق عليها اسم فكرة - تكرر نفسها برتابـة: يجـب أن أراهـا مرة أخرى! يجب أن أراها مرة أخرى!

في الفجر، في الوقت نفسه الذي كانت تـستعد فيـه الطيـور لمغـادرة أعـشاشها، انطلقت نحو القصر. الملك، تلك الروح المسكينة، كان يعـاني مـن مـشكلات في قلبـه والدواء الذي أخذه أرسله في غيبوبة طويلة. وعلى الرغم من أنني تمنيت أن يحدث له شيء كهذا، إلا إنني لم أجـرؤ عـلى الأمـل في أن أجـدها مـستيقظة. لكنهـا كانـت كذلك. رأيتها تجلس القرفصاء في البلكون مرتدية بدلـة رياضـية زرقـاء وقـد فـردت يديها أمامها وكأنها تستعد لدعك الأرضية المصنوعة من الرخـام اللامـع بخرقـة. ثـم قامت بفرد ركبتيهـا، وبـلا مجهـود، رفعـت جـسدها الجميـل وقـدميها عـن الأرض وظلت واقفة على يـديها بعنـق ثابـت ومفـرودة وذقنهـا المدببـة مدفوعـة للأمـام. بدت وكأنها جرادة عملاقـة (ولكنهـا بـالطبع أكـثر جاذبيـة مـن مـاركيز "سـانت باسماك" والذي سـأتحدث عنـه لاحقًـا) تلـك الوضـعية، كـما علمـت، كانـت في الحقيقة تُسمى وضعية "غراب العقعق". كانت تشبه ذلـك الطـائر، خـصوصًا في

الطريقة التي تتمدد بها أصابعها مثل المخالب، وظهر يديها المليئة بشباك من الأوردة المنتفخة.

بقيت في تلك الوضعية المستحيلة لمدة دقيقة قبل أن تعيد جسدها مرة أخرى للأرض وترقد على معدتها. ثم عادت مرة أخر لتفرد وترفع أولاً رأسها ووجهها المشرق ثم تلته بالجزء العلوي من جسدها حتى كونت زاوية مستقيمة بين الجزء العلوي من جسدها وساقيها. وفجأة، تم الكشف عن صف كامل من الأسنان الرائعة البيضاء في فكها السفلي وهمسة غير متوقعة فلتت من بين أسنانها محدثة هذا الصوت "سسسسس".

استمرت على هذه الوضعية حتى أنزلت الجزء العلوي من جسدها ورأسها بتأنٍ وتوقفت عندما لمس جسدها الأرض لترقد مرة أخرى على معدتها لتستريح. حركات الزواحف التي أدتها جعلتها أشبه ما تكون بالأفعى أو الحية. استمرت في ممارسة تدريباتها البدنية وعيناها مغلقتان، ولكن الطريقة التي عرضت بها كل تفاصيل جسدها المثالي الفتَّان - وكأنها على المسرح - أقنعتني بأنها كانت تعلم بأنني موجود في مكان بالقرب منها، وأنها كانت تسخر بصمت من دهشة ذلك الأبله فاغر الفاه. فتحت جفونها المغلقة، رقدت العشيقة مستيقظة. وبدون النظر إلي، تركت فيّ أثر مروِّع. لقد استعبدتني بنظراتها منذ البداية وكل ما عليها أن تفعله الآن هو أن تجذب الخيوط.

بعد ذلك، عندما توطدت علاقتي بها أكثر، عرفتُ أن تلك الحركات التي تقوم بها ما هي إلا بعض طقوس رياضة "اليوجا" الصباحية المعتادة:

وأن الأوضاع التي كانت تتخـذها أو مـا يُـسمى بــ"أسـانا" في اليوجـا، هـو اختـصار لأسـماء عـدد مـن الحيوانـات: الأسـد، والهـر، والحـمام، والطـاووس، والـسلاحفة، والضفدع والسمكة. لقد استخدمتهم جميعًا في ممارسـة أحـد ألعابهـا معـي. فعـلى سبيل المثال تقوم باتخاذ واحدة من تلك الوضعيات المستحيلة وتبقى فيها وتطلـب مني أن أتعرف على اسم الحيوان الذي تقلِّـده؟ كـان مـن الممكـن أن أسـعد بهـذه اللعبة لو كانت تتصرف كطفلة في هذه اللعبـة الطفوليـة، ولكنهـا كانـت تحـب أن تعذبني. "إن استطعت التخمين، ستحـصل عـليّ وإن لم تـستطع، فـلا أريـد أن أراك لمدة لا تقل عن ثلاثة أيام". لقد كانت ذكية وماكرة.

عندما اصطحبت "سنووايت" إلى الغابة بدعوى أنني سأقوم بتنفيذ ما أمـرت به الملكة، طار فستانها حول ركبتيها لأنها كـان معروفًـا عنهـا التحـرك بخطـوات سريعة. ولأنها كانت مليئة بالبراءة، فكانت تنحني تحت كل أجمة، لكي ترى كل زهرة، وتنصت لأغـاني الطيـور وتطـرح الأسـئلة بالطريقـة نفـسها التـي اعتـادت عليها.

- هل رأيتها وهي تقفز حولنا؟ هل هذا هو "العندليب"؟ انظر إلى ذلك العش الكبـير الذي بناه طائر "العندليب"! ها هو زوجها، قد أتى لها بالديدان.

كانت "سنووايت" تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا وقد تحولت مـن تلـك الفتاة الصغيرة الحالمة ذات الشفاه الممتلئة إلى جـمال حقيقـي، ولكنهـا بقيـت حالمة وساذجة كـما كانـت مـن الـداخل. ولكـن، مـن الخـارج كانـت مكتملـة النضج بكل منحنياتها الموجودة في موضـعها الـصحيح. أنـا أتـذكر أننـي بـدأت

أتساءل ما هي المدة التي قضيتها وأنا تحت سيطرة الملكة، وإلى أي مدى جعلتني أطيع أوامرها لمجرد التمتع بلحظة من رحمتها في المقابل. منذ متى وهي تستغلني وتستعملني، ولكن كل شيء على وشك التغيّر الآن!

بدأت في تنفيذ خطتي سلفًا. كان أصعب ما فيها هو التظاهر بأنني سوف أترك "سنووايت"، وحيدة بالغابة. لقد تمزَّق قلبي من شدة الألم عندما اضطررت لتجاهل توسلاتها بعدم تركها بلا حول ولا قوة بين وحوش الليل، على الرغم من أنني في الحقيقة قمت بترتيب كل شيء لها؛ فقد قمت بالدفع لهؤلاء الأقزام السبعة لكي يتقبلوا "سنووايت" في كوخهم ولكي يرعوها.

قمت بعمل ترتيباتي مع "دوك" وإخوته الذين يشبهون العرائس. لقد عملت مع الأقزام لسنوات. إذا ما وضعنا عملهم في التعدين على جانب، كانت لديهم طرق ووسائل أخرى متعددة للحصول على المال، إلا إنهم كانوا يشتكون باستمرار من أنهم يكدون ويكدحون بحثًا عن لقمة العيش. لكنهم في حقيقة الأمر منافقين صغار وماكرين، يكدسون ما يكسبونه من أموال في البنوك الأجنبية شهر وراء شهر.

تضمَّن عملي مع هؤلاء الأقزام الاتجار في نوع معين من "المشروم" الذي كان ينمو في أماكن في أعماق الغابة. لأنه كان أغلى وأكثر قوة وفاعلية من "الكمأ" و"دوك" و"جرامبي" والآخرين قد كلفوني الكثير من الأموال مقابل الخدمات التي قدموها لي. ولكنني لم أكن قط أبلهًا وساذجًا، لقد بعت هذا "المشروم" متظاهرًا بالثقة، لأثرياء الحاشية المسنين، وللدوقات

خائري القوى والأمراء مرتدي الشعر المستعار الذين هـم عـلى اسـتعداد لـدفع أيـة مبالغ من المال مقابل استعادة قدراتهم الجنسية.

ما كان لي أن أتحصل على هذا القدر من الأموال التي حـصلت عليهـا مـن وراء إشباع الرغبات السخيفة لأولئك المسنين وولعهم بأن يـصبحوا قـادرين جنـسيًا مثـل الكباش في شيخوختهم المبكرة عن طريق بيع بودرة وحيد القرن! أفضل عملائي كان مستشار الملك، الماركيز "سانت بازاماك" سالف الـذكر، هـذا الغنـدور المـسن الـذي يبلغ من العمر 75 عامًا.

والذي كان يمشي بالنميمة بين الناس باستمرار. عندما كان الملـك لا يـزال على قيد الحياة، كان ذلك الرجل الحقير قـد ورَّط نفـسه في فـضائح أخلاقيـة ودعابات جنسية مع الخادمات الصغيرات لكي يتفاخر أمـام النـاس بأنـه قـد نجـح في انتـزاع عـذريتهن. (أمَّـا الفتيـات، فقـد كـن معتـادات عـلى تلـك العواطف المنحرفة وقاموا بتأدية الدور الخاص بالبريئات المخدوعات بمنتهى البراعة مستخدمات في ذلك دموعهن الخادعة ودم الحمل الـذي لطخـن بـه أفخاذهن!).

كان الماركيز "بازاماك" هو المنظم الرئيسي لحفلات الـرقص التـي كانـت تقـام في القصر. كان رجال البلاط وزوجاتهم يحضرون تلك الحفلات. كانت الزوجات يغطـين وجوههن بالبودرة ويرتدين ملابس السهرة المبهرجة. يستمر الجميع في الحضور إلى الساحة المركزية تقريبًا كل ليلة، ويستمر صدى الحفلات الموسـيقية الراقـصة حتـى مطلع الفجر.

هذا الخليع العجوز لم يكن يحتمل رؤيتي ولكنه كان يـدفع لي بـسخاء مقابـل الحصول على "المشروم". وقد اعتدت ادخـار هـذه النقـود مـن أجـل شراء البنـادق الجديدة، ولكن بمجرد وقوعي تحت تأثير الملكة، حتى بدأت في إنفاق كل ما أمتلك على شراء الهدايا لها.

فأنا شخص لم يفكر في حياته قط في الذهاب إلى التسوق. ولكنني أصـبحت الآن أضيع كل أمسياتي في البحث داخل محلات تحمل أسماء الماركات التجاريـة العالميـة مثل "كافالي"، و"أونجارو"، و"ماكس مارا"، و"دولتشى & جبانا" ويسيطر علي خـوف مستمر من كوني غير قادر على إيجاد القطعة المناسـبة بـين كـل تلـك الـدمى التـي تعرض صنوف من الملابس والرفوف المكدسة.

في بعض الأحيان أجدها تكتب شيئًا ما على قطعة صغيرة من الورق: "بدلة ذات جاكيت ضيق وجيبة فوق الركبة تمامًا، تنتهي بشكل غير متوقع بكشكشة في مكـان ما فوق الحذاء المرتفع"، أو "جاكت صوف ذو تطريز ذهبـي وحُـلي محليـة الـصنع لكي تتماشى مع التنورة ذات طبعة الفهد والمطرزة بدانتيل ذي لون فاتح".

من الذي يستطيع أن يفهم تلـك الألغـاز؟ لـيس أنـا، بالتأكيـد. لقـد تعـثرت، وعُذبت وأُحبطت في هذا العالم الغنـي، والمـنظم والأجنبـي للموضـة. وأصـيبت معدتي بالتقلصات تحت وطأة هذا الضغط النفسي لخـوفي مـن أننـي قـد أقـوم بالاختيار الخاطئ. وعلى الرغم من كل ذلك، فهي لم تشعر أبـدًا بالرضـا عـلى أي شيء قمت به.

في السنين القليلة الماضية، قررت استئناف ممارسة عادة ادخار الأموال، ولم أكـن أعرف حينها الـسبب، ولكننـي بـدأت في ادخـار بعـض الأمـوال وبعـد فـترة قـصيرة، استطعت ادخار قدر محترم من الأموال. كان كافيًا كي أدفع للأقزام الـسبعة الـصغار من أجل الاعتناء بـ"سنووايت"، لقد كنت محظوظًا على الـرغم مـن أننـي لم أتوقـع يومًا أن تفكر الملكة في القيام بشيء كهذا.

فهوسها بالمرآة السحرية! التي كانت تقضي أمامها وقتًا أكثر مما قضته وتقضيه مع كل الملوك، الصيادين والرجال الآخرين في هذا العالم. فأمام المرآة كانـت تجـد صـورتها الحقيقية. تجد نسخة مكررة منها على الجانب الأخر وكأن صورتها المنعكسة في المـرآة هي "بورتريه" جديد لها يُرسم كل صباح. كانت المرآة هي الشيء الوحيد الذي كانـت تطيعه دون اعتراض.

في بعض المناسبات، كانت تتقبل النصائح التي كانت تُهمس في أذنيها مـن قبـل "ماركيز دو سانت بازماك" الخليع الفاسق، والتي تتعلق عادة بإقامة بعض الحفلات الراقصة الفخمة، أو في كيفية إفراغ الخزينة الملكية من الأموال، أو زيـادة الـضرائب على الناس. وعلى الرغم من ذلك، فهو نفسه لم يسلم من الإهانـة والإذلال، وإذا بـه يتلوى مثل حشرة مدهوسة (كان يشبه الجرادة بأي حـال مـن الأحـوال) أمـام نـبرة صوتها المرتفعة القاتلة.

أمام المرآة، على الرغم من ذلك، التي أحـضرتها للقـصر في حراسـة خاصـة داخـل عربـة مختومـة بالرصـاص. كانـت تتـصرف كـما لـو أنهـا تقـف أمـام معبودتها الخاصة. كانـت تـؤمن بكـل شيء تخبرهـا بـه. كـان الـصباح الـذي

أخبرتها فيه بصوتها العليم أن "سنووايت" أجمل منها هو أسوأ صباح في حياتها. والأسوأ منه عندما أخبرتها بأن "سنووايت" ما زالت على قيد الحياة.

كان ذلك الثعبان الخرف "سانت بازماك" هو الذي أخبر الملكة بمكان اختفاء "سنووايت". لا بد أن الأقزام السبعة الملاعين هم من أخبروه عنها مقابل الحصول على رشوة ضخمة. لم تقل لي شيئًا، ولكنها حوَّلت نفسها في السر إلى ساحرة شريرة عجوز كثيرة التجاعيد.

مجرد التفكير في هيئتها أرعبني وأصابني بالقشعريرة، على الرغم من كوني معتادًا على كل أنواع الرعب! وبخطوات صغيرة وبطيئة (خطوات الشيخوخة!) انطلقت نحو الكوخ الذي تختبئ فيه "سنووايت" وسمَمَتها. (أخبرها "سانت بازماك" بالمكان والساعة التي تكون الفتاة موجودة في الكوخ وحدها بواسطة). أرسلت في طلبي بعد عودتها إلى القصر.

- تفضل بالدخول! أرجوك، تفضَّل بالدخل. لقد كان الباب دومًا مفتوحًا لك حتى الآن. ما عدا الأوقات التي كنت تؤدي فيها حركات الـ"أسانا" بشكل خاطئ.. وحتى حينها، كنت أعاقبك لثلاثة أيام فقط.

تمكنت من سماع نبرة غاضبة مختبئة وراء صوتها الهادئ. أكملت قائلة:

- أمَّا الآن، فلن أسامحك مرة أخرى.

وبالنبرة الباردة المهددة نفسها، أعلنت أن "سنووايت" قد ماتت وأنني بالنسبة لها في عداد الموتى أيضًا، وأنها لا تريد أن تراني في سريرها مرة

ثانية، ولا تريد أن تراني في قصرها، ولا في مملكتها. ولكي أنقل لكـم مـا قالتـه صراحـة، قالت لي وهي تأمر الحراس باصطحابي حتى حدود المملكة:

- بعض الأشياء لا يمكن أن تتم إلا بالقوة.

خلال ساعتين فقط، هويت من مكانتي كعشيق الملكة والصيَّاد الملكي إلى المنفي المشرد. كـما أنهـا انتزعـت منـي الـشيء الوحيـد الـذي لا يمكننـي أن أعـيش دونـه. انتزعت مني الغابة!

على الرغم من كل هذا، وعـلى الـرغم مـن الكتلـة التـي نمـت وتثاقلـت داخـل صدري، عليّ أن أعترف بأنني خرجت من تلـك التجربـة بمتعـة واحـدة فقـط. لقـد أنقذت "سنووايت" وفقًا لخطة وضعتها بنفسي معتمدًا على معرفتي الجيدة بالملكة وبمستشاريها الحقراء مثل "المرآة" و"سانت بازماك". خفـتُ مـن أنهـا قـد تكتـشف يومًا أن الفتاة ما زالت عـلى قيـد الحيـاة. ولـكي أكـون في الأمـان ولـكي أسـتطيع أن أحمي "سنووايت" من كل خطر محتمل، أعطيت "دوك" وزمرته قارورة تحتوي على ترياق جبَّار.

كنت قد أعددته وفقًـا لوصـفة بعـض الـصيادين القـدامى والتـي لـن أسـتطيع الكشف عن مكوناتها بالطبع، ولكن ومن أجل توثيـق اللحظـة، سـوف أفـصح عـن القليل منها: البشرة الرقيقة لقنفذ البحر، وسمكة من ذوات الأربع أقـدام، وأقـراص عسل النحل البري، ومريء حلزون الحديقة، ومنقار طائر الحجل، وغيرها الكثير. مزجت المكونات بكميات ونسب دقيقة، ثم طحنتهم جميعًا، وحفظتهم في مكان بارد لمدة 33 يومًا. إن تم صـنع المـزيج بالـصورة الـصحيحة، سـيكون الترـيـاق فعـالًا بـلا شـك. لكـن

هناك أثرًا جانبيًا، وهـو وأن المـريض سـوف يـدخل في حالـة مـن الـسبات العميـق المصحوبة ببطء شديد في التنفس. نوم عميق لن يستطيع المريض الاستيقاظ منه إلا إذا قبَّله أحد مغرم ومتيم به من الجنس الآخر.

لم أترك هذا الأمر أيضًا للصدفة، ولكنني تأكدت من أن صديق "سنووايت"، ربما مصطلح صديق ليس هو المصطلح المناسب لهذا الشاب الذي يبدو مظهـره بـصورة ما غير عادي ولكن مكانته لا غبار عليها. فهو أمير مـن مملكـة "دراكوليـا". وشـغفه بها كان باديًا (كنت قادرًا على ملاحظته مـن واقـع خـبرتي) والفتيـات مثلهـا يحبـبن الفتيان الذين يجمع مظهرهم بين الأضداد.

جمعت نظرة الأمير الثابتة بين اللا مبالاة المزعجة ونـوع مـن الـسخرية - أرجِّح أن هذا نـابع مـن التـاريخ الأسـود لعائلتـه - وعنـدما تعمَّـد الابتـسام بأسلوبه الساخر رافعًا جانبي شفتيه، ظهر طرفي نابيه واللذان كانا أطول من الطبيعي. كنت واثقًا من أن قصة أميرة جميلة نائمـة داخـل تـابوت زجـاجي ستثير اهتمامه.

أتى الترياق بالنتيجـة التـي توقعتهـا تمامًـا. غرقـت "سـنووايت" في سـبات عميـق، وكـان تنفـسها تقريبًـا غـير ملحـوظ (كـما هـو الحالـة في رياضـة "اليوجا" التـي كانـت تمارسـها الملكـة لـكي توقـف الـشيخوخة مـن الوصـول لخلاياها). كانـت كالنبـات - أكـثر النباتـات روعـة - لا تتحـرك ولكنهـا حيـة. ظلـت عيناهـا مغمـضتين بغـض النظـر عـن تتـابع الليـل والنهـار وتغـيرات الضوء والظلام. وهؤلاء الـصغار قـامو بـدورهم في النحيـب والبكـاء بطريقـة

مقنعة للغاية، لأنني دفعت لهم آخر قطعة نقود كنت قد ادخرتها (كلما كان الرجل قصيراً، كلما كان تمثيله أفضل).

جثوا على ركبهم حول الكفن وانخرطوا في البكاء وقبعاتهم في أيديهم، مما أبرز صلعاتهم وجعل المشهد أكثر تأثيراً. أصبح قبر "سنووايت" أيقونة جمال وقبلة المعجبين. الحجاج الفضوليين، والمغامرين، والعاطفيين الوافدين من كل أرجاء الأرض. وفي صباح يوم ما، ظهر من بين الجموع، فارس يعتلي صهوة جواده الأبيض وتعلو جبهته نجمة سوداء، مرتديًا معطفًا طويلًا بشكل غير معتاد يطير خلفه والذي كان مناسبًا له بشكل رائع.

انحنى فوق الفتاة النائمة. كل شيء حولهما بدا وكأنه من صنع البشر: أشجار البرقوق المزهرة، الفراشات بألوانها المتعددة تطارد بعضها البعض، وعنكبوت قد نسج شبكته بين زنبقتين. وبعدها قام بتقبيلها. لم أكن أقف في الصف الأول للمشاهدين لذا لا أستطيع أن أصف مشهد التقبيل بالتفصيل بسبب جموع الرؤوس المتمايلة الموجودة أمامي، ولكنني عرفت أن "سنووايت"، على الرغم من أنها كانت مندهشة، قامت بالتأقلم وعدلت من وضعيتها لتتناسب مع الموقف الجديد بسرعة كبيرة فطالت القبلة.

رأيت "سنووايت" مرة أو مرتين في السنة منذ تلك الحادثة، كانت تبدو شاحبة بعض الشيء عندما رأيتها آخر مرة (كانت دومًا تعاني من الأنيميا. أصبح اسمها ينطبق تمامًا على مظهرها) سألتها إذا ما كانت

سعيدة؟ وأجابتني: "نوعًا ما". لستُ أدري السبب، لكن شفتاها التوتا بطريقة ما وهي تتحدث. كما يقولون، السعادة الكبيرة يجب أن تحتوي على قطرة من المرارة.

بالنسبة للملكة، فقد تحملت أسوأ ما يكون منها. قالت لي قبل أن تقوم طردي شر طردة بدون حتى أن يطرف لها جفن:

- لا يمكن إجبار الأشياء لكي تكون جميلة.

كرست كل حياتي لإمتاعها وإسعادها. لقد أحببتها حبًا لا يحتمله الجسد ويعذب الروح. وكيف ردت إلي الجميل أو المعروف؟ كانت تسخر مني من وراء ظهري مع الخادمات أو الوصيفات، هؤلاء اللزجات والخليعات المتملقات. أنا أعلم أنها كانت تقارنني بالأقزام الفلاحين، وبالجلف، وبالوسخ الموجود تحت الأظافر، ووصيفاتها تضحكن بصوت عال ومتكلف.

كنَّ مجرد نساء، تدَّعين بأنهن من الطبقة الراقية أمامها:

- كيف حالك؟ لم أرَك هنا في زيارة لعشيقتك منذ وقت طويل؟

كنَّ يختلنّ ويتبخترنّ بأثدائهن ومؤخراتهم في الردهات. أعلم أن "سانت بازماك" كان يثرثر ويمشي بالنميمة علي داعيًا إيّاي بـ"المتوحش القادم من الغابة"، وأنها عندما طردتني، تفاخر بأنه كان له الدور الأساسي والفعال في التأكد من "أن هذا الإنسان البدائي" لم يعد موجودًا بينهم.

ولكن ضحكاته الساخرة السمجة لم تستمر لوقت طويل. فضحكته تلك وقفت في حلقه عندما طردته شر طرده بسبب تورطه في مؤامرات داخل البلاط الملكي، ونفته إلى أبعد الأديرة. (يمكنني أن أتخيله في غرفة الرهبنة، وهو غارق في عرقه ويستمع لعواء ذئاب الجبل).

ولكنني لن أترك الأمر يمر هكذا، ما الذي تعتقده؟ هل ستنجو بفعلتها بعد كل ما فعلته معي؟ حسنًا، لن تنجو! أصدقائي الحقيقيون القلائل، وهم أيضًا صيادون، كانوا يمتدحونني لقصصي التي كنت أرويها بجوار النار في الغابة. كانوا يقولون إنها أفضل قصص سمعوها في حياتهم. لا بد أنك سمعت كيف يسخر منا الناس بسبب قصصنا، بكل ما تحمله من مبالغات وكذب، ولكنهم يستمعون إليهم في كل مرة بالشغف نفسه.

حسنًا، لقد قررت الآن. سوف أخبركم بحقيقتها بكل ما تحملها من تفاصيل مرعبة فاضحة. كما نقول نحن الصيادين، الحظ يحالف هؤلاء الذين ينتظرون لوقت أطول. سوف أغزل قصة عنها، ولكن هي ليست قصة عن أنثى، لكن عن ملكة جميلة ومتكبرة كان لديها صياد غبي نجحت في أن تلفه حول أصبعها، ولكن عن زوجة أب مرعوبة من أن تصبح عجوز وابنة زوجها،"سنووايت" ذات الجمال الناشئ كالبرعم الأخضر بوجه أبيض كالثلج. وشفتين حمراوين كالدم وشعر أسود كشجر الأبانوس.

الفتاة تزداد جمالًا في كل لحظة. سوف أروي قصة عن ملكة غيورة وشريرة لا يمكنها أن تقبل حتى أصغر التجاعيد في وجهها والتي ما إن رأتها في المرآة، حتى أخذت تستحم في حليب أنثى الفرس وتغطي جسدها بالأعشاب

النادرة والباهظة الثمن التي يتم استيرادها من الشرق الأقصى بينما الفقـر والبطالـة يجتاحان مملكتها. وبدافع الشر والحقد، دفعت هذه المرأة أعظم ثمن يمكن للمـرأة أن تدفعه وحولت نفسها إلى سـاحرة شريـرة عجـوز لـكي تخـدع "سـنووايت" حتـى تقضم قطعة من تفاحتها المسمومة. تلك المرأة التي تعي جيدًا مدى ولعي وهيامي بها وحاولت أن تستغلني كي أصبح قاتلًا لفتاة صغيرة! لقـد تـصورت أننـي التقيـت لأول مرة في حياتي بالمرأة التي يمكننـي أن أتحـدث عـن أحلامـي معهـا، ويمكنهـا أن تفهمها على أنها واقع سيتحقق يومًا. وهي التي وقـع عليهـا اختيـاري، معـشوقتي، هي نفسها معذبتي.

وعلى الرغم من كل شيء، فإنني تعلمت شيئًا واحدًا، وهو أن أكـثر الرجـال ثقـة في النفس يمكنه أن يصبح بلا حول ولا قوة وأن يصبح ضعيفًا، ويتحول من صياد إلى ضحية. وبالتـدريج، يبـدأ "سـيد الموقـف سـابقًا" بالـشعور برعـب وذعـر للفريـسة المطاردة الذي اعتاد اعتباره جزءًا معتادًا من اللعبة.

كان قلبه يخفق ككرة ضخمة مجنونة تم ركلها بواسطة الخوف في غرفـة ضـيقة بلا مخرج، ودون نافذة حتى، ولا يوجد شيء بها سوى صوت ضربات قلبه المجنونة. لدى الصيادين حكمة تقول:

"فلتظل حيًا ما دمت تتمتـع بـصحة جيـدة. كـن صـلبًا وصـامدًا في وجـه كـل علـل البـشر الـصغيرة ومـواطن ضـعف الجـسد والـروح، لأنـك صـياد!". كنـتُ صـيادًا، ورحـالًا. ولـدت لـكي أطـوف الغابـات وأبقـى بالخـارج تحـت سـماء الليـل. أنـا لم أُخلـق لحيـاة القـصور وحفـلات الـرقص. لمـاذا تغـيرت

بشدة هكذا؟ في الماضي، استطاع الجميع أن يروا كيف كنت أشعر؟ كانوا فقط بحاجة لينظروا إلى وجهي ليعرفوا طبيعة شعوري. أمَّا الآن، فبفضلها، تعلمت كيف أدَّعي وأتظاهر، وكيف أخبئ أكثر نواياي خبثًا خلف ابتسامتي. كنت سجينًا داخل نفسي، وضحية لعجزي.

شعرتُ بأنني أموت، وأن لا شيء يهم، ولكن هذا اليأس والقنوط جعلاني أكثر مرونة وأقل ارتيابًا. يجب علي أن أكمل رحلتي عبر الليل دون أن أتوه!

وهكذا بعيدًا عن مشاعر الحقد والضغينة والرغبة في الانتقام، سوف أحكي القصة. الفائدة الوحيدة التي عادت علي من وراء استخففافها بي هو أنني تعلمت كيف أقرأ وأكتب. كانت تدعوني بـ"الريفي الجلف"، و"حيوان مدرب لا يصلح سوى لشيء واحد: أن أمنحها المتعة في الفراش". ولكن، رغبتي السرية لكي أجعلها تحبني وأمنحها السعادة قادتني إلى تعلم الحروف. بالألم والصبر تعلمتهم. أردت أن أريها إنجازاتي، فكتبت لها خطابًا.

هكذا كتبت: "حبي الوحيد! أقسم لكي أنني سوف أحبك لبقية حياتي. سأحبكِ أكثر من الصيد وأكثر من الغابة. أنا لست بحاجة لأي شيء سوى حضنك، وأن أشعر بحضنك الذي يضع قلبك في مواجهة قلبي. هذه ستكون أعظم حرياتي". وهكذا دواليك على المنوال نفسه. يا له من شيء عظيم. ردت على باحتقار، ودون أن تبدي أي تقدير لمجهوداتي: "إن كنت تعتقد أن كونك قد أصبحت متعلمًا – بالكاد – يعني بأنك قد أصبحت أكثر ذكاءً،

فهذا يعني بأنـك موهـوم. وكونـك تتعطـف وتتنـازل وتقـارنني بغابتـك، فيمكنـك أن تستمر في مقارنة نفسك بجذع الشجرة، لكن ذلـك الجـذع سـيظل دومًـا جـذعًا مهـما حدث".

هذه واحدة من إهانتها المعتادة، والتي بقـدر مـا هـي جارحـة، إلا أننـي كنـت أتناساها لأن حبي لها كان أقوى من ذاكرتي. ولكن الآن عندما تعود إلي ذكـرى تلـك الإهانات، أتذكر رائحة الروث الطازج، وأشعر بالغثيان من مجرد التفكير فيما فعلته تلك المرآة بي. هذه الملكة التي تبـدو ظاهريًـا وقـورة ومعتدلـة. وهـي في الحقيقـة كانت تتلوى مثل العاهرات في السرير.

كانت ذات طبيعة استبدادية لا تستطيع أن تقاوم رغبتهـا في طلـب المزيـد مـن عبدها. فكما يقول المثل، عندما تُصاب الذئاب بداء الكلب فإنها تموت. لكن، عندما تُصاب به الثعالب، فإنهـا تبقـى عـلى قيـد الحيـاة دون أيـة عواقـب وخيمـة. لقـد التهمتُها بعينَي مثل الذئب، وأصبحتُ مريضًا بداء الكلب في الحب، وهي، الثعلبـة، لم تكن تحتاج سوى أن تهز ذيلها لي فأفقد صوابي وأتبعها أيـنما أرادت دون تفكـير. لقد أصابتني بجنون وارتباك داء الكلب. ما كانت لتتردد في تركي لأسقط صريعًا دون أدنى شعور بالندم. ولكنني بقيت رغم كل ذلك على قيـد الحيـاة. في النهايـة هنـاك دومًا وميض من الـضوء في نهايـة النفـق. بعـد فـترة، ربمـا بعـد مـرور عـدة شـهور، تـم اسـتعادة رغبتـي الـسابقة في ممارسـة الـصيد. في صـباح يـوم مـا - كـل الأشياء الجديدة تبدأ في الصباح – علَّقت بنـدقيتي عـلى كتفـي وانتقلـتُ إلى الغابة. ليس كصياد ملكي ولكن كصياد مخالف يـصطاد دون تـصريح. كانـت سعادتي لا تُوصف؛ لأنني كنت أقوم بعمل أكثر شيء أحبـه، الفـارق هـو أنـه

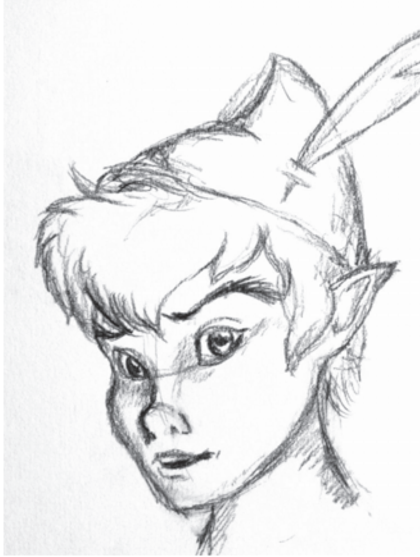
أصبح الآن غير مرخص وغير شرعي. وعلى الرغم من أنه يبدو ظاهريًا أنني قد نسيت كيف أقوم بعملي – كنت أخرق وفقدت هدفي أكثر من مرة - لكنني ما لبثت أن استعدت مهارتي بالتدريج. وبحلول الظلام كنت قد قتلت أرنبين بريين، واثنين من طائر "الحجل" وخنزيرًا بريًا سمين. أصبته إصابة مباشرة بين عينيه فسقط كجذع شجرة.

عطر الغابة، ورائحة البارود. وحتمية الموت. كم هم هي مثيرة كلها!



القصة الثامنة

"نيـــڤرلاند"





"يجب ألا تروى أحداث هذه القصة الخيالية عند طبيب الأسنان

أثناء انتظارك لكي يتم فحص طقم أسنانك".



قال العالم العظيم "شيشرون": "لا يمكننا تغيير الماضي!". فلماذا إذًا تـسيطر عـلى البشر تلك الحاجة الملحة لبعث الماضي من جديد؟ هـل هـو الهـروب مـن الواقـع؟ والمقصود بـ"الهروب من الواقع" هنا هو محاولة الهروب من المشكلات الآنية. تبدو هذه الإجابة أبسط الإجابات على هؤلاء الذين يعيدون - لعدد لا نهائي من المرات - رواية أحداث الماضي الخاصة بهم بطريقة منمقة. مما دعا إلى الحاجة لحفظ التوازن بين ما كنا عليه في الماضي وما أصبحنا عليه الآن في تلك الحكايات المكررة والمعدلة التي تسرد فترة شبابنا. ففي تلك الحياة، جميعنا نحدد ما نريد الاحتفاظ به وما نريد التخلص منه. في كل الأوقات، وفي كل دقيقة تمر، يموت جزء منا، والعجيب في الأمر أننا نتصرف وكأننا مخلدون حتى عند حضورنا لجنازات أحد أقاربنا. وعلى الرغم من كل شيء، فنحن نعكف على بناء تواريخنا الذاتية كما لو كان كل واحد منا "قيصر" أو "جاليليو". ونبذل جهودًا مضنية بلا مغزى كي نخلد ذكرانا على الرغم من أننا نعلم جيدًا أننا سنضطر يومًا للرحيل.

لكن، على الجانب الأخر، أليس من الإنساني أن نؤمن بأهميتنا في الحياة حتى عندما نكون في قمة تفاهتنا. على الأقل كي نرفع مستوى ثقتنا بأنفسنا وبفكرة أننا أروع وأكمل ما صنع خالقنا؟ بمرور الوقت، يزول تضخم الذات هذا الذي نعاني منه بكل تأكيد، على الرغم من أنني ما زلت أرى بعض أقراني وهم يقنعون أنفسهم بأنهم أبطال صغار. أبطال بعكازات، ها... ما عدا هو، يبقى الوحيد الذي هوب، هوب، هوب، يقفز ويطير ويحتمل، ذكي وغير مسؤول دائمًا، وإلى الأبد! ما الذي يمكنني أن أقوله، وقد تركت هاتين الحياتين المختلفتين وراء ظهري؟ وأجلس الآن على مقعد في "متنزه كينسينجتون"، وأنا في خريف العمر، والحمام من حولي ينقر فتات الخبز الذي أحضره له كل أسبوع.

كل ينال نصيبه. فهناك بعض أوراق الأشجار التي تتحول إلى اللون الأصفر وتسقط في شهر أغسطس، فيما يحتفظ البعض الآخر بأوراقه حتى حلول الخريف. أنا لست مثل هؤلاء الناس الذين تمرسوا على تراكم قوى حياتهم وجاذبيتهم عندما كانوا صغارًا وبعد ذلك تركوا الشيخوخة تدهسهم بلا مقاومة. لا شك في أن الحكيم "هوراس" قد التقط الفكرة بشكل جيد عندما قال: "هناك معيار لكل الأشياء وفي النهاية هناك حدود معينة يخضع لها الجميع".

متمسكون بها تمسك المحاربين القدماء المنعزلين بما تبقى من جدائل شعورهم عندما كان كثيفًا. تراهم وهم يسيرون في طرقات المتنزه، مرتدين ملابسهم بمنتهى الأناقة ومحتفظين ببعض التفاصيل اللافتة للنظر كأنهم يسيرون في عرض ما. على سبيل المثال، وضع منديل أبيض حريري في الجيب

العلوي من سترتهم الطويلة المـشقوقة مـن عنـد الـذيل، الأمـر الـذي ربمـا يهـدف إلى إبـراز رغبتهم في الهروب مـن روتـين الحيـاة العائليـة اليوميـة الممـل. لكـنهم صـاروا الآن مـسنين ومتعالين بدرجة تمنعهم من اللجوء إلى إحدى الحانات المملـوءة بالـدخان. يمـشون بخيلاء كما لو كانوا في طابور عرض عسكري عبر طرقات المنتـزه محتفظـين بلطفهـم وحلاوة معشرهم التي يتسمون بها ومستقيمين في مشيتهم قدر المـستطاع. لدرجـة لو أن وابل من الأمطار قد انهمر عليهم فجأة، وغمرهم بالكامـل في غـضون دقـائق كما لو كانوا قد غمسوا في نهر "التايمز"، سترى هؤلاء المتفـاخرين إلى الأبـد يفتحـون مظلاتهم بأناة وبسرور. يشبهون في سلوكهم هذا بعض الأشجار التـي تبـدو وحيـدة ومنعزلة عن قصد. غريبو الأطوار هؤلاء، الذين يشبهون جزرنا البريطانية في وقفتهـا وحدها في وجـه الـريح والأمطـار. سـوف يظلـون متفـاخرين هكـذا حتـى ولـو تـم اقتلاعهم من جذورهم بعد أن أصبحت مشوهة، أتم سـحب جـذوعهم إلى مخـازن بعض أباطرة صناعة الأثاث أو تم بيعها في سـوق جـذوع الأشـجار الهزيلـة. بجانـب هذين النوعين من الأشجار هناك نـوع ثالـث ثابـت وراسـخ في المنتـزه، وهـي تلـك الأشجار التي تنشر أوراقها الذهبية ليس بالتـدريج ولكـن مـرة واحـدة، لتنـثر هالـة ذهبية ناعمة ورقيقة حول نفسها يُعجب بها من يراها من الأمهات والأطفـال عـلى حدٍ سواء وتراهم يركضون حول جذوعها ويغطون أنفسهم بـالأوراق. مـا هـو نـوع البشر الذي يشبه تلك الشجرة؟ في الحقيقة، الذين يشع منهم شيء مـا، دون كـذب أو ادعاء أو تظاهروا زيف أوكتمان: شيء اختبره الآخرون كقوة تـؤثر علـيهم عنـدما يقتربون منهم أو عندما يسمعونهم وهم يتحدثون.

إن ما تمنحنا إياه الطبيعة، لا يمكن لأحد أن يسلبه مننا. و"بيتر"؟ أي نوع من أنـواع الشجر هو؟ بالطبع ليس ذلك النوع المتسلق! فهو مكتفٍ دومًا بذاته، أبدي، ولا يتلاشى أبدًا ولا يسقط ودائم الخضرة! نعم يبدو كشجرة دائمة الخضرة أوقف نموها اليابـانيون بمهارة لكي تجعلهـم صـغار الحجـم، وفي قمـة الجـمال وغـير قـابلين للتغيـير. كـشجرة" البونساى" دائمة الخضرة.

أنا أعلم جيدًا إلى أي مدى قد تصبح احتياجات المحيطين بنـا في بعـض الأحيـان خانقة - أم يجب أن أقول مهدئـة؟ - لفرديـة الـشخص. لكـن ألـيس مـن حـق كـل شخص بالغ أن يحتفظ بتفرده؟ "بيتر" لديه هذه المقدرة. أنا أوافق على ذلك – على الرغم من أنه لن يصبح أبدًا ناضجًا - وأنا أيضًا أمتلك هذه المقدرة. لكن، "بيتر" ربما يكون قادرًا أكثر مني على الرؤية لمسافة أبعد قليًلا ممَّا هو بادٍ.

لكنه بعد كل هذا، يستطيع أن يطير، وأن يظل صبيًا – فمن المعروف أن مشهد الأطفال الصغار الذين ليسوا بحاجة إلى نظارات طبية أفضل بكثير من منظـر رجـل في الـستينيات. لكننـي عـدلت طبيعتـي كي تتـواءم مـع أعـراف المجتمـع، وفكـره ومنطقه. لكـن مـاذا عنـه؟ فالتزامـه الوحيـد هـو أن يُحمـل بعيـدًا كي يـستطيع أن يطير حولنا وأن يمارس القليل من رياضة "الـشيش" مـع أحـد القباطنـة المفقـودين. يجري هنا وهناك وكأنـه يـستمتع بالفعـل بألعابـه الـلا نهائيـة والفتيـات المـساكين اللاتي ظل يغويهن لعقود. مدعيًا بأنه سوف يمـنحهن حيـاة جديـدة بالكامـل بيـنما حياته لا تنتهي أبدًا. كن جميعًا مقتنعات بأنهن أميراته المفضلات بينما هو لا يريـد منهن سوى الذكريات الممتعة لتلاعباتـه ومناوراتـه القديمـة وحـسب. هـو - ودعنـا

نكون صرحاء - بلا قلب ولا رحمة. لكن من ذا الذي يمكنه أن يخبر الفتيات بهذا الأمر دون أن يشمئزوا منه لبقية حياتهم؟

كالعادة، كان المنتزه مليئًا بالأطفال والمربيات والكلاب، إلا أن لا أحد منهم تجرَّأ على مضايقة الحمام الخاص بي. كونهم كانوا بالفعل معتادين على مزاجي السيئ. ويفضِّلون مشاهدتنا أنا وطيوري من مسافة آمنة. كان الأطفال يحدِّقون صراحة فينا، أما الكلاب فكانت أكثر خجًلا، ولكنهم كانوا جميعًا خائفين مني كما لو كنت الغراب العجوز "سولومون كاو" الذي التقاه "بيتر" لأول مرة في هذا المتنزه عندما نجح في الطيران لأول مرة في حياته، رافضًا أن يكبر بعد ذلك. عندما تقابل الاثنان، شعر الغراب العجوز بالحزن "لبيتر" لأنه كان بين بين، فلا هو طائر مكتمل ولا هو ولد حقيقي، لكنه ساعده على تقبُّل ذلك قدر استطاعته، فهذا هو قدره. أما بالنسبة لطفل مثل "بيتر" لم يكن الأمر يمثل مشكلة على الإطلاق. فعندما وجدنا أنفسنا، نحن "الأطفال الضالة" في "نيفرلاند"، كان "بيتر" يتصرف بالفعل كحاكم مطلق له مطلق الحق في أن يحكم.

في النهاية، بدا كل شيء في "نيفرلاند" وكأنه سباق لا نهائي. كنا نُطارد من قبل القراصنة وهم كان يتم مطاردتهم من قبل الهنود، والهنود بدورهم يهربون من الوحوش الجائعة الذين كنا نرتدي جلودهم، مثل ثعبان "الأوروبوس" (الذي كان يعض ذيله). وعلى الرغم من أن الجزيرة لم تكن دائرية الشكل بل كانت مستطيلة بصورة غير منتظمة، ومليئة بالمنحدرات والبحيرات. كل فرد كان منا يراقب ويتابع الآخرين. وكل فرد

منا كان إما مطارد أو ضحية أو كليهما معًا. لكـن مـن ذا الـذي يـستطيع أن يغلـق الدائرة وهي غير منتظمة؟ الإجابة: لا وجود لمثل هذا الشخص.

كان السباق في الواقع راكدًا، وعلى الرغم من أن أقـدامنا كانـت سـاخنة ودماؤنـا تنـادي للقتال، لم نتمكن من أن نترك أنفسنا للتعب والإرهاق لأن المتتبعين المتعطشين للدماء ليسوا بحاجة سوى للقليل من الوقت لكي يمسكوا بنا.

في حكايات ما قبل النوم التي تحكيها الأمهات للأطفال، كما كانت تفعل زوجتي مع أبنائنا؛ ففي "نيفرلاند"، لا نهاية للأشياء الرائعة المبتكرة. على الـرغم مـن أن أنـا وبقية الأولاد المفقودين عشنا هناك لسنوات عديدة، ونعلم جيدًا إلى أي مدى كـان البقاء هناك خطيرًا. كما يقولون، هناك العديد من الآراء ما دام هنـاك العديـد مـن الرؤوس.

كان" بيتر" مختلفًا عن بقيتنا باعتباره قائدنا. فقد كـان يتحـتم علينـا أن نرتـدي ملابس ثقيلة، وخرقاء مصنوعة من فراء الدب بينما هو يرتدي حلة أنيقة مـصنوعة من أوراق الشجر. كان "بيتر" جلفًا وخشنًا في كل ما كان يفعله سـواء كـان يمـزح أو يهين أحدنا، كان يقول أشياءً مثل: "فلتطر يـا صـاحب الـشعر المجعـد! وأنـتما، أيهـا التوأمان اللذان يشبهان الصفارات، مـا الـذي تنتظرانـه؟". كـان "بيـتر" معتـادًا عـلى توجيه الأوامر لنا، ويـضحك طـوال الوقـت بيـنما نحـن عـالقون مثـل كـرات الفـرو العالقة بالأرض نتدحرج كلما وقعنا، نشعر بأننا مرغمون على السخرية مـن عجزنـا. لكن كما قلت؛ كان "بيتر" مختلفًا في كل شيء: في نظراته، وفي سـحره وجاذبيتـه، وفي ثقته بنفسه التي جعلته يقود فرقتنا الصغيرة.

لكنه حرَّم علينا أن نبدو مثله. لقد كان دومًا - كـما أوضـح "مايكـل دارليـنج" – يضعنا جميعًا في راحة يده. كان "مايكـل" أصـغرنا سـنًا وأكثرنـا سـذاجة واسـتعدادًا لنسيان كل شيء أتى من العالم الخارجي.

لكن "مايكل" حتى الآن - وبعد مرور الكثير من العقود (ابنه البكر عـلى وشـك التخرج من جامعة "إيتون") - هو الذي ما زال يتذكر بسعادة مغامراتنـا عـنما كنـا أطفالًا في "نيفرلاند".

أنا أعرف بعض الناس الذين يقولون إن "مايكل" هو مجرد شخص ثرثار يتحدث عن الأشياء التي لا يصح الحديث عنها، لكنني ما زلت مغرمًا بصحبته، ولـيس فقـط بسبب علاقتنا الأسرية. "فمايكل" رجـل يـستطيع بـسهولة أن يريحـك مـن الجمـود والخمول بنوادره وحكاياته.

فعقله يرغب دومًا في المخاطرة، وهو في هذا الصدد يشبه لحد مـا "بيـتر". عـلى الرغم من أنه كشخص بعيد كل البعد عن أنانية "بيتر" الفاشية. فكلاهـما مـستحوذ عليه بواسطة أخلاقيات معينة والقدرة على معرفة كيف يجعلون أنفسهم محبوبين.

في حالة "بيتر"، تنبع تلك الموهبة من خيلاء يشبه خيلاء "نيرون"، بينما "مايكـل" فيُعتبر فتى مهذب على الرغم من ثرثرته، ولم يكن يومًـا شخـصًا بـذيئًا. مـا يرعبنـي حقًا هو عدوانيته الخشنة، عدوانية تم تزويدها ولـلـه الحمد في الإمبراطوريـة عـلى يد ملكتنا وقوانينها المحبة للحقيقة (نصلي لكي يمنحها الرب حياة مديـدة ومثمـرة) المتفشية في "نيفرلاند". وهذا الأمر لأكون صريحًا، يعود إلى "بيتر".

يمر الوقت سريعًا في "نيفرلاند". العديد من التغيرات قد وقعت بالفعل، بعـضها كان مبهجًا والبعض الآخر كان صعبًا، ولكن أعمارنا لم تتغـير، ولا عقولنـا، وكأننـا قـد نسينا كيف نكبر.

بعد ذلك، عندما أحـضرونا إلى بيـت عائلـة "دارليـنج"، اكتـسب كـل شيء وتـيرة منتظمة، ليبدأ اليوم في الصباح بغسيل الملابس وينتهي بقصص ما قبـل النـوم التـي ترويها "ويندي". كل شيء هادئ وفي موضعه ووقته الصحيح، لا ينقصه سوى وجود "كابتن هوك" وقراصنته (مات الجميع، رحم الرب أرواحهم المظلمة). و"بيـتر" الـذي عاد، كما كان متوقعًا، إلى "نيفرلاند". تلك العودة التي احتفلنـا بهـا معًـا مـع عائلـة "دارلينج" وأصدقائي الجدد في الجامعة في منزل العائلة. بدأ الشعر ينبـت في وجهـي وجسمي. سمعتهم يقولون إن هذه علامة أكيدة على البلوغ. تظهر عنـدما يـستهل الصبي مرحلة البلوغ. أنا أتذكر كيف أنه وسط كل هذا التـصفيق والتهليـل المعتـاد والصخب المصاحب لفتح الهدايا، وافقت "ويندي" على تقطيع "كعكة عيـد المـيلاد" وكيف أن فستانها قد ارتفع لأعلى عندما صعدت فوق الطاولة وساعتها كنت قـادرًا على رؤية فخذيها البيضاوين وشعرت - للمـرة الأولى بارتبـاك قاتـل - بالإثـارة كـأي رجل. شعرتُ بالغضب الشديد من نفسي ووعدتُ نفـسي بـأنني لـن – هـا أنـا هنـا أعترف بذلك لأول مرة - أتخلى أبدًا عن "ويندي". وقد وفيت بالوعد وتزوجتها.

في الأسـبوع المـاضي، دفنـا "بـارني". أصـغر التـوأمين. مـات بغبـاء وهـو يمـارس رياضـة المـشي الـصباحية كعادتـه كـل أحـد أثنـاء عبـوره لميـدان "ترافلجـار". كـان المـسكين يعـاني مـن ثقـل الـسمع لـذلك فـشل في سـماع

صوت تحذيرات سائق العربة وهو يعبر الطريق. بعد هذا الحادث، زعم السائق، الذي بدا عليه الأسف الشديد لما حدث أنه ظل يصرخ بأعلى صوته لكي ينبهه لكن "بارني" لسوء الحظ لم ينتبه، وكان يحملق عند وقوع الحادث في السماء ويبتسم لنفسه.

لم أناقش مع "بارني" قط أي من الأمور الهامة والجادة مثل سياسات رئيس الوزراء البريطاني "بينجامين دزرائيلي" أو فن "ما قبل الرفائيلية" (وهم مجموعة من الرسامين الإنجليز الذين قرروا رسم لوحات تحتوي على مشاهد من حقبة القرون الوسطى والقصص القديمة). استعاد البساطة والعذوبة نفسيهما اللتين كان يتمتع بهما في "نيفرلاند". شعرنا جميعًا بالأسف الشديد لوفاته، لدرجة أن "ويندي" لم تستطع أن تتمالك نفسها وانفجرت في البكاء.

حصل كل الأطفال المفقودين على تعليم لائق وأمان مادي كافٍ حقًا، تحت عناية العين اليقظة "لعائلة دارلينج"، لكي ينقذنا من التبذير والتبديد والإغراءات المحيطة بالطبقة الوسطى. كنا بحاجة شديدة إلى مهن جيدة.

لكن كل تخميناتنا حول القدر لم تكن فقط غير كافية بل كانت رديئة للغاية! أصبحتُ ناضجًا الآن وصحتي تخدمني بشكل جيد. أنا طاعن في السن لكي يتم تجنيدي في هذه الحروب القاسية (حمدًا لله) على الرغم من أن أبنائي الثلاثة ما زالوا رهائن تأدية هذا الواجب. وأنا لا أدري هل يجب علي أن أشعر بالقلق أم بالفخر. من ناحية أخرى، دعنا نضع حالة "بارني" في اعتبارنا. لقد ظل عازبًا وبلا أي طموح يميز به نفسه اجتماعيًا. كان شخصًا طيبًا وضعيف الشخصية، وموضع سخرية

"مايكل" الدائمة. كان يقول له: "أوه "بارني" أنت ناعم مثل القطن، ولكن القطن أخف بكثير!". والكثير من النكات المختلفة. من ناحيته، تعامل "بارني" مع الأمر ببساطة وضحك عليهم. لم يعر الأمر أي اهتمام.

أعلم أنني عجوز وطاعن في السن ووقور ومحترم في الوقت ذاته بما يليق بالمستوى الاجتماعي لسيدة مثل "ويندي" في مجتمعنا، أنا أعلم أنها ما زالت غارقة في حب "بيتربان". فعلى الرغم من مرور كل ذلك الوقت، لم تنسه "ويندي" أبدًا.

ما زالت معه هناك في "نيفرلاند" عندما كانت "ويندي" فتاة صغيرة في التاسعة من عمرها. سألتُ نفسي ما الذي قد تتذكره سيدة ناضجة لديها حفيدة عن ذلك الوقت عندما كانت صغيرة في السن (ولم تكن حتى قد أصبحت ناضجة جنسيًا)؟ ما هو ذلك الشيء الذي ما زال يغذي مخيلتها عن ذلك الفتى الضعيف، والتائه، ومحطم القلوب؟ ما الذي اكتشفته هناك في زيارتها القصيرة لكن المثيرة لـ"نيفرلاند" لكي تبقى مفتونة بها حتى وقتنا الحاضر؟ إذا ما قارنتني به، أعلم أن هذه المقارنة ستُحسم ضدي. هل لأن وزني قد ازداد وأصبحت غير لائق منذ بلوغي سن الثلاثين، وأن جسدي يتحوَّل إلى كيان مجهول الهوية تحت الماء؟

هل ذلك بسبب أنه من السهل التنبؤ باختياري لما أقول أو أفعل؟ أنا متأكد من أن "ويندي" تؤمن بأن شخصيتي سطحية كأوراق "الكوتشينة"، بلا عمق على العكس من عقل "بيتر" "النيِّر" الذي يستطيع أن يركِّز في عمل شيئين ويظل قادرًا على المشاركة في لعبة محفوفة بالمخاطر في الوقت نفسه؟

أو ربما بسبب أنني دومًا ما ألمس معصمي لكي أتأكد إذا ما كانت أساور قميصي متوازية مع تلك الخاصة بسترتي؟ أو لأن المتوقع مني هو أن أتحدث بدقة وباللكنة الصحيحة وبجمل ذات بناء نحوي صحيح؟ (على الرغم من أن "مايكل" يخبرني بنية حسنة من أن لكنتي ما زالت تخون حقيقة أنني لم آتِ من عائلة نبيلة أو قديمة). أو لأنني يمكنني أن أُتهم بأنني غير ودود مع أطفالي، على الرغم من أنني لا أصدق أن "ويندي" قد تذهب بعيدًا لهذا الحد؟ هي لن تفعل ذلك أبدًا، لأن ذلك الأمر بعيد كل البعد عن الحقيقة. ربما أكون قد اختلقت بعض الأبعاد "الأرسطية" بين مختلف أجزاء المنزل ومهامها. حقيقي أنني لم أحب أن حجرة الأطفال عندما كانوا صغارًا قد تم غزوها برائحة لبن الأطفال (على عكسي، اعتاد "بيتر" دخول حجرتهم من النافذة دون إذن). في الواقع، هذا المكان خُلق من أجل الأم والمرضعة. فعن نفسي، لا أحب عندما تقتحم "ويندي" و"جين" حجرة مكتبي بي دون إذن. لكن هذا الأمر ليس له أدنى علاقة بالحب، إنه يتعلق بالعادات المهذبة الخاصة باحترام خصوصيات الآخرين. فأنا أحب الحفيف الذي يصدر عن ورق الجريدة عندما أقوم بفتحها في الصباح. علي أن أعترف بأنني لا أجيد التعامل مع صحبة النساء. بدأ الأمر عندما كنت في "نيفرلاند"، وبعدها عندما عشت في المنزل رقم 14 وكل سنوات الدراسة بالجامعة. كنت محاطًا دائمًا بالذكور. كنت أتناول طعام العشاء في النادي عندما كنت شابًا. لم يكن مسموحًا سوى للرجال بالتواجد هناك. تمكنت من تكوين بعض الصداقات في غرفة التدخين وأثناء لعب "البلياردو"! فأنا ببساطة أجد أنه من الأسهل قضاء الوقت بصحبة رفاق من النوع نفسه.

والآن وبسبب كل تلك النقائص، فأنا لـست شخـصًا عاديًـا. فأنـا أحـب أن أضـع وردة صفراء في عروة سترتي وهذا شيء بالتأكيد يميزني عن باقي أعضاء النـادي. كـما أنني أفضِّل السيجار من الحجم المتوسط، والنساء اللاتي يرتدين المعاطف المـصنوعة من الفراء الأبيض. أليس هذا أمرًا شاذًا وعجيبًا بعض الشيء؟ بالإضافة إلى أنني لدي هبة لا تُصدق، وهي قدرتي على التقاط أنغام أحـدث الأوبـرات. وهـو مـا يُعتـبر في النادي دليلًا على شخصية لا يُستهان بقدراتها.

ولأنني مُتبنى، فقد حملت اسم عائلة "دارلينج" مثل كل الأطفال المفقودين. وعنـد وصولنا لرقم 14، سخر "مايكل" وقال إن عائلة "دارلينج": "يتـضاعفون كـل يـوم". كـان على حق في قوله هذا. نحن الستة بالإضافة إلى الخمـسة المقيمـين بالفعـل جعلـوا منـا عائلة كبيرة. لكن السيد "دارلينج" استطاع أن يحتـضننا جميعًـا بيـده الحنـون الرقيقـة. ومنحنـا جميعًـا تعلـيمًا جيـدًا وربَّانـا عـلى أن نكـون أطفـالًا مهـذبين وراقيـين داخـل الإمبراطورية.

يقولون إنني كنت أكثر الأوغاد وسامة بين جميع الأطفال الضائعين عندما كنا في "نيفرلاند". كنتُ طفلًا صغيرًا بثلاث أسنان وكنت أنا الـشخص الـذي دفعتـه "تينكـر بيل" كي يضرب "ويندي" بسهم. كانت تطير في الهواء كطائر أبيض ضخم. قال واحد منا – أعتقد أنه كان "سلايتلي" الذي دائمًا ما ان يدعي أنه يتذكر أشـياءً مـن حياتنـا قبل قدومنا إلى "نيفرلاند" - قال إن "ويندي" هو اسم أحد الطيور. استغلت "تينكـر بيـل" الفرصـة وبـدأت في الـصراخ وإخبـاري بـأن "بيـتر" يريـدني أن أصـطاد "وينـدي"! "بسرعة! بسرعة يا صغار سوف يصبح "بيتر" مسرورًا للغاية". أطعتها وأثبـتُّ بـأنني رامٍ

ماهر. أصبت الطائر إصابة مباشرة في الصدر. كنت فخورًا بنفسي لدرجة كبيرة عندما سقطتْ على الأرض، ولكن سرعان ما أصبح واضحًا أن ما اصطدت بسهمي كان مختلفًا تمامًا عن أي طائر (فكما قال "هوراس": "عادة ما لا يصيب السهم هدفه"). وبعد ذلك قال شخص ما: "إنها فتاة". أصبحتُ شاحبًا وبدأت أرتعش. لم أرَ فتاة من قبل. كانت عبارة عن أم جميلة أراها في أحلامي فقط. أول فكرة طرأت على بالي كانت: "هناك أم حقيقية قد أتت أخيرًا، وأنا قد قمت باصطيادها!". شعرت بالأسف بسبب الجريمة التي اقترفتها على الرغم من أنني قد تم خداعي كي أرتكبها من قِبل "تينكر بيل". وافقت على الفور أن يتم عقابي وقتلي على يد "بيتر" والسهم نفسه الذي أطلقته على "ويندي". لحسن الحظ، وبينما أنا في انتظار عقابي جاثيًا على ركبتي استعدادًا له، تحرّك ذراع "ويندي" وسمعها أحدهم وهي تقول: "أيها المسكين الصغير". أنا لم أفهم في البداية كيف كانت تعرف اسمي بالفعل. لم يصبها السهم بسبب زر بلوزتها، هذا الزر كان هدية من "بيتر" (كان مغرمًا بتذكيرنا بذلك) وهو ما أنقذ حياتها.

كانت "ويندي" تعاملنا حقًا مثل الأم، ليس بملء إرادتها لكن لكي تستطيع أن تلبي احتياجاتنا. لأننا كنا بحاجة لمن يرعانا ويروي لنا حكايات قبل النوم في "نيفرلاند". عندما انتقلنا للعيش في مدينة "لندن" تم الاستيلاء على دور الأم بواسطة السيدة "دارلينج" باعتبارها أكثر ملاءمة للدور. ولكن "ويندي" بقيت تتصرف بصورة وقائية نحوي، في البداية كأخت وبعد ذلك كزوجة. وهو ما استمر حتى يومنا هذا، وأراه واضحًا في الاهتمام الذي تبديه نحوي يوميًا، مثل أن تخبرني أي حذاء يليق بأي بدلة، وما إذا كان علي أن أرتدي قبعة عند زيارة

أحد، أو تخبرني عندما تجدني قد أفرطت في شرب الخمر (في هذه الحالة، يتم التواصل عن طريق الابتسام، فهي لن تحذرني من شيء كهذا أمام الآخرين). كان واضحًا أنني تزوجت من "فريستي"، ومن "أمي"، ومن "أختي". وهي تحمل اسمي الأخير نفسه - "ويندي مويرا أنجيلا دارلينج - أو أنا من يحمل اسمها الأخير نفسه. ربما لهذا السبب دائمًا ما بدا زواجنا زواجًا لائقًا.. كما يجب أن يكون الزواج. أنجبنا ثلاثة صبيان، خدم مخلصين لجلالة الملكة، وفتاة واحدة.. ابنتنا "جين" الصغيرة والتي أنعم عليها الرب بابنة صغيرة أسمتها "مارجريت".. حفيدتي. وكما يقول المثل: "الزوجة المطيعة كنز".

ولهذا فأنا لا أجد سببًا مقنعًا أفسر به اضطرابات النوم التي عانيت منها مؤخرًا. في "نيفرلاند"، نمت تحت الأرض في نوع من أنواع السراديب على أرضية صلبة عارية يفصل بيننا سرير مصنوع من أوراق الشجر ولم يكن لدي سوى فراء الدب ليشعرني بالدفء. القراصنة والحيوانات المفترسة والبرية، والأشباح والوحوش ربما تكون هناك بالخارج تتربص بي في الظلام، ولكنني رغم ذلك كنت أنام نومًا عميقًا. واليوم، وأنا أعيش في بيت كبير، تقريبًا في حجم القصر، ومليء بالخدم وغرف النوم المريحة ذات المراتب العريضة الطرية، فإنني أستيقظ في منتصف الليل، وأنا مضطرب وغارق في عرقي، ولا يمكنني أن أعود مرة أخرى للنوم لفترة طويلة بعد ذلك.

وكأن الكثير من حبات البازلاء قد تم وضعها تحت المرتبة، لتوخزني وتقلق منامي. "شيخوختك هي التي تقلق منامك. لقد هرمنا وتُركنا وحدنا". "وحدنا؟". "مع أنفسنا. وحدنا مع أنفسنا". وفي ليلة ما أنا متأكد، هذا الحقير "بيتر" سوف يطير في حجرة حفيدتي "مارجريت" وأنا راقد أتقلب

وأتلوى في فراشي (وقد تساقطت أسناني.. عـدتُ كـما كنـت في "نيفرلانـد" دون أسـنان، ولكن الفرق هو أنني أكبر بستة عقـود)، وبمجـرد طيرانـه داخـل حجـرة ابنتـي "جـين" وزوجتي قبلها. سـوف يجلـس عـلى فراشـها ويبـدأ في تقليـد صـوت الغربـان! وعنـدما تستيقظ "مارجريت" سوف ترى صبيًا جميلًا ولن ترى فيما وراء كل هذا الجمال أنه في الحقيقة سيئ جدًا. ليس سيئًا لأنه لم يزل الطين من عـلى حذائـه، ولكـن سـيئ لأنـه لا يهتم بأي شيء إلا متعته. حفيدتي، تمامًا مثل أمها "جين" و"ويندي" قبلها، لن تتمكن من رؤية أي من هـذا. لـن تـرى سـوى صـبيًا جمـيلًا سـيعلمها كيـف تطـير إلى "نيفرلانـد" المعجزة.

كل هذا سيستمر إلى الأبد، حتى عندما أصبح عظامًا في القبر، وأتفتـت وأتحـول إلى تراب. نعم، سيظل "بيتر بان" يزور الفتيات ويتباهى في صلف وغرور ويغـريهن إلى الأبد. سيظل شابًا صغيرًا غير ناضج. بعض المسنين يتصرفون مثل الأطفال، ولكنـه أبدًا لن يهرم.

عندما أموت (بسبب نوبة قلبية على ما أعتقد)، حبيبتي "ويندي"، بمـا لهـا مـن سمعة طيبة ومحترمة كأرملة، لـن ينقـصها شيء. أبنـائي سـوف يتـذكرونني بـاحترام يشبه كثيرًا الانبهار الذي كـانوا يـشعرون بـه في حـضوري. سيتـصدر نعيـي جريـدة "التايمز". وأعتقد أن "ويندي"، و"جين"، و"مايكل" سوف يذرفون الدمع الغزير عـلي في جنازتي.

أفترض أنني في لحظة الموت الفعليـة سـوف أكـون قـد امـتلأت بالفعـل بـبعض الدهـشة. بقـدر مـا "بيـتر" معنـي بـالأمر، فأنـا أتخيـل أن أحـدهم ولـو بالـصدفة

قام بإخبار "بيتر" بأنني مت. أنا متأكد من أنه سيقوم فقط بفرك شعره غير المسرَّح وسيقول: "ومن يكون هذا الشخص بحق الجحيم؟".

رحل الحمام بعد أن حصل على وليمته وودعني بمنتهى العطف والمحبة: "إلى اللقاء! حتى الأحد القادم في الميعاد نفسه!" كما قال الشاعر الروماني الحكيم "هوراس": "تمر السنوات، وتجردنا من شيء تلو الآخر".

- هل تريد العودة مرة أخرى إلى "نيفرلاند؟

سألني "مايكل" في إحدى الليالي.

- ونحن هكذا؟ بالتأكيد لا.

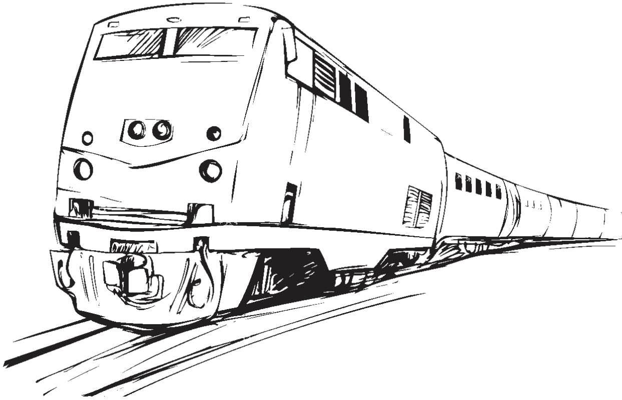
- أنت على حق. أنا لم أفكر في الأمر من هذه الناحية!

ضحك مصحوب بجرعة كبيرة من السخرية تعادل أكثر مما يمكن أن تقدمه طبيعته المرحة. ولكنني تأكدت في تلك اللحظة من أننا نحن الاثنين قد شعرنا بالحزن.



القصة التاسعة

"بابراديشكي"





"يجب أن تُروى أحداث هذه القصة الخيالية على مسامع الفنانين الصغار".

بدأ الأمر برمته بلقاء غير اعتيادي داخل مقصورة الدرجة الأولى بالقطار السريع المتحرك من محطة "بلجراد" والمتجه نحو "سكوبيه".



من المؤكد أن الأمر حدث بعد مرور أكثر من ساعة أو ساعة ونصف أو ربما ساعتين بعد مرورنا بمدينة "نيش" الصربية وفي الوقت الذي بدأت فيه أنتظر نهاية رحلتي، بدأ القطار في تغيير سرعته على تلك القضبان الصدئة، مبطئًا تارة ومسرعًا تارة أخرى هكذا بالتبادل.

فجأة، وبشكل غير متوقع تمامًا، وكأنما دخل بواسطة ومضة من البرق، ظهر فجأة أمامي ومن حيث لا أدري في المقعد الشاغر المقابل لي، صبي!!

لطالما اعتدت السفر بصورة متكررة لمدينة "سكوبيه". تقريبًا مرة كل شهرين عندما كنت أعمل لدى مجموعة من مهندسي البناء البلجيكيين الذين كانوا يجرون بعض الاختبارات على أحد الميادين الرئيسية لكي يقرروا ما إذا كان الميدان سيحتمل كافة المنشآت والمباني التي تم إنشاؤها فيه دون تغطية. وإذا ما كان الحفر المكثَّف سيؤثر على نهر "فاردار" أم أنه قد يؤدي إلى فيضانه ليجتاح الميدان بعد ذلك.

سافرت إلى "سكوبيه" بالقطار، ولكي أكون أكثر دقة، فإنني قمت بتغيير العديـد من القطارات وقد تخلل هذا التغيير العديـد مـن فـترات الانتظـار بـين: بروكـسل - باريس، وباريس - بلجراد، وبلجراد - سكوبيه.

ليس هناك سبب واحد يدفعني للسفر بالقطار سوى أننـي لـدي خـوف مـرضي من السفر بالطائرة! على الرغم من أن الطائرات تُعتبر وسيلة نقـل معقـدة وتتمتـع بأعلى درجات الأمان والتنظيم والدقة، لكن الحقيقة أن جل مخاوفي تتركـز في فكـرة ما إذا وقع خلل بالطائرة التي تقلنـي وكيفيـة مـواجهتي لهـذا الخلـل غـير المتوقـع باعتباره أحد مخاطر الطيران.

أتذكر أنني عندما كنت طفًلا صغيرًا، كنت أخشى المصاعد الكهربائية، وهذا الدوار المخيف الذي يصيبني عندما أفكر في الطائرات اليوم هو نوع من أنـواع الفوبيـا التـي أعاني منها. فالشعور بالقلق الشديد كونك قد تموت فجأة وبلا وسيلة تـدافع بهـا عـن نفسك وأنت محصور داخل طائرة تسبح في ذلك الفـضاء الفـسيح! أنـا بـالطبع أعلـم تمامًا مثل الرجل الذي يجلس إلى جواري أن الإحصائيات تقول: "إن مثل تلك المخـاطر والكوارث نادرة الحدوث وأن حوادث السيارات والقطارات أكثر شيوعًا". ولكن الواقـع أيضًا يقول عندما تتحطم الطـائرة، فأنـت مقتـول لا محالـة! بالإضـافة إلى أن رحـلات الطيران تكون فائقة الـسرعة وأن الطـائرة تحلـق عـادة عـلى ارتفاعـات شـاهقة فـور إقلاعها. فمن ذا الذي سيقدم لك يد العون لينقذك هناك؟

وعـلى الـرغم مـن كـل التـأجيلات وتبـديل القطـارات، إلا إننـي اعتـدت على السفر بالقطار. فأنـا أشـعر بالأمـان في القطـار، وفي القطـار أسـتطيع أن

أتناول قضمة من "ساندوتشي" المفضل وأن أقرأ أحد الكتب الممتعة والمثيرة. وفي القطار يكون لدي دومًا متسع من الوقت لكي أنهي قراءة الكتب. واكتشفت عبر أسفاري، أن القصص البوليسية هي أكثر الروايات التي تجذب انتباهي. عندما وقعت الحادثة العجيبة المشار إليها بالأعلى، كنت في منتصف أحد القصص البوليسية التي تتحدث عن مغامرات المفتش "ميجرى".

يبدو أنني كنت مستغرقًا بشدة في القراءة لدرجة أنني لم ألحظ كيف ومتى تمكن هذا الصبي ذو الشعر الأشعث والأنف الكبير والخوف الشديد الذي يملأ عينيه من الظهور فجأة أمامي في المقصورة التي كانت قبل تلك الحادثة شاغرة.



كلما نظر من نافذة المقصورة على الأشجار والمنازل التي تتحرك بسرعة، تتسرب من بين شفتيه أصوات ذعرٍ تشبه الصرخة المطولة. ويداه مطبقتان بشدة على حقيبة مربوطة بحبل، وفي الوقت نفسه يدفع بقدميه نحو المقعد المقابل له وكأنه يريد أن يوقف القطار.

وما بين تقلصاته، يستمر الصبي في ترديد كلمات غير مفهومة تنتهي بالمقطع: "شته".

حاولت أن أهدئ من روعه:

- اهدأ يا صغيري. كل شيء سيكون على ما يرام!

- شته.. "أديشتا".

ظل يتمتم.

- ليس هناك شيء يدعو للخوف.

- "راديشت".. "بارديشت".

- من أنت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟



بدأ جسد الصبي ذو الحظ العثر يرتعد كله مرة واحدة وبشدة. في البداية، حملق في وجهي وبعدها في النافذة. من الواضح أنه لم يفهم لغتي الفرنسية وكنت في حاجة لبعض المساعدة.

لكن عند عودتي إلى المقصورة، بأقصى سرعة ممكنة وبصحبتي الكمسري، وجدت المقصورة فارغة تمامًا والنافذة مفتوحة على مصراعيها. فكرت بصوت عالٍ أن الصبي ربما ألقى بنفسه من النافذة، لأن من الواضح أنه كان في حالة من الضيق الشديد بسبب شيء ما.

نظرتُ أنا والكمسري من النافذة، وبالطبع، فشلنا في رؤية أي شيء ما عدا الأحجار والأشجار التي تمر على طول القضبان، والحقول الخضراء والجبال الزرقاء الممتدة على طول الطريق. وفي حالة إذا ما كان تخميننا صحيح وأن الصبي قد ألقى بنفسه بالفعل من النافذة، فإننا بالتأكيد قد اجتزنا موضع سقوطه بمسافة كبيرة.

بدا (الكمسري) أقل اهتمامًا بأمر الصبي مني، وخمن أن الطفل ربما يكون قد انتقل إلى عربة مختلفة. أوصاني كذلك بأن أتفحص أشيائي لكي أتأكد مما إذا كان كل شيء في مكانه. وجدت رده هذا جارحًا وذميمًا لأقصى درجة، لأنني استرجعت في ذاكرتي مشهد الصبي وإلى أي مدى بدا أمينًا لي، على الرغم من أنه بدا مذهولًا وغائبًا عن الوعي أكثر.

وإذا بالقطار وأنا أفتح الحقيبة يهتز اهتزازة قوية وهو يتخذ أحد انعطافاته الحادة، وهو الأمر الذي قطع رتابة مساره المعتاد ليعلو صوت صرخة الفرامل.

أصابتنا الدهشة نحن الاثنين حيث إن ملابسي، وبعض الأغراض الأخرى، قد تبعثرت بين المقاعد وعلى الأرض.

كان الشيء المجهول الآخر عبارة عن مسحوق مادة الكوبالت الأزرق. والذي انسكب من حقيبة الصبي الجلدية البالية التي كان متشبثًا بها بشدة بكلتا يديه والتي تركها خلفه أثناء معاناته من حالة التوتر الرهيبة التي أصابته.

حاولت جاهدًا إزالة أثر هذه البودرة من على أرضية المقصورة بمنديل ورقي لكن ما حدث في النهاية هو أنني خففت قليًلا من حدة اللون الأزرق الداكن المسكوب ولطخت رقعة أكبر من الأرضية باللون الأزرق الفاتح بسبب حركة يدي. لاحظت أثناء عملية التنظيف، أن المادة المسكوبة هي نوع من أنواع بودرة الألوان وأنني لم أغطي الأرض ببودرة الكوبلت تلك وحسب بل حولتها إلى طلاء أزرق اللون عندما استعنت بقدر من الماء في عملية التنظيف.

حينها قلت لنفسي: "لقد استمررت في القيام بما لا يجب علي القيام به". وباحتقـار لم يحاول إخفـاءه مـن عـلى وجهـه، تركنـي الكمـسري في المقـصورة كي أرتـب أشـيائي. لحسن الحظ، لم يرَ الفوضى التي أحدثتها بالطلاء.

وبينما أنا جاثٍ على ركبتي أنظف الأرضية بلا جدوى، قمـت بتلطـيخ شيء آخـر لم يكن بين أغراضي. شيء ما تدحرج على الأرض ليستقر تحت حقيبتي.

تبيَّن لي بعد ذلك أن هذا الشيء الذي تم تلطيخه هو فرشة ألوان صغيرة بـرزت شعيراتها الكثيفة الخشنة من تحت الشنطة. التقطتها. كانت هيئتها تدل عـلى أنهـا قد استُخدمت كثيرًا جدًا. وأن الطلاء والفرشة كلـيهما يـشيران إلى حقيقـة أن هنـاك علاقة ما تربط بين هذا الصبي وعالم الرسم والألوان. ولكن بأي صورة؟

في تلك اللحظة، استيقظت بداخلي روح المحقق البلجيكي "هيركيول بوارو" هـذا لأنني لست فقط محب لقراءة الروايـات البوليـسية - كـما سـبق ونوهـت - ولكـن لأنني في الأصل بلجيكي. وهناك أربعة أشياء يشتهر بها البليجيكيون؛ لاعبات التنس، والكتـب الهزليـة، والمحققـان البوليـسيان الأشـهر عـلى الإطـلاق: المحقـق "بـوارو"، والمحقق "مايجريت".

المحقق الأول هو شخصية بلجيكية ابتكرتها سـيدة إنجليزيـة، والشخـصية الثانيـة هي شخصية باريسية ابتكرها كاتب بلجيكي الأصل. ونتيجة لـذلك، لم يكـن بمقـدوري أن أرحل دون أن أخدش سطح اللغز الخاص بهذا الصبي الغريب الذي ظهر واختفـى فجأة من داخل المقصورة.

الأمر الذي لم يفارق تفكيري كان ذلك الاسم الغريب الـذي عكـف الـصبي عـلى ترديده: "براديشت". كلمة كررها الصبي عدة مرات قبل أن يختفي والتـي وجـدت من الصعب علي أن أنطقها بلكنة صحيحة.

بمجـرد وصـولي إلى مدينـة "سـكوبيه" شرعـت في البحـث في كـل مكـان عـن "براديشت" هذا؟ وقد كان علي في ذلك الوقت أن أحتمل سخرية رفاقي المقـدونيين بسبب نطقي الخاطئ للكلمة. تم إخباري بأن هذا الاسـم هـو اسـم إحـدى القـرى التي تبعُد مسافة 7 كيلومترات عن مدينة "بوجوميلا"، وهو اسم غريب آخر ذكَّـرني بأجدادي "الكاثار" الذين خرجوا من هذا الجزء من العالم.

بالنسبة لي كان هذا اكتشافًا مثيرًا في حد ذاته. وقد كنت مندهشًا لأنني وجدت أن لا أحد من رفاقي في "سكوبيه" يعرف سوى القليل عن هذا الأمر. وفجأة فتحـت فصًلا جديدًا في التحقيقات التي أجريها.

في إحدى بيوت الشاي التركية الموجودة في البلدة القديمة والتي تُـدعى "جـاليري"، توقفتُ لكي أدفئ نفسي باحتساء القليل من الـشاي. التقيـت صـدفة بأحـد الرسـامين المتخرجين حـديثًا مـن أكاديميـة الفنـون. خمنـت بحـسي البوليـسي مـن اسـم المكـان والجداريات التي تغطي جدرانه، أن بيت الشاي التركي هذا هو ملتقى للرسامين والفنانين الموجودين هنا. صدق حـدسي، فأثنـاء تحـاوري مـع بعـض الـضيوف الموجـودين هنـاك، اكتشفت أن هؤلاء الفنانين أنـاس لطـاف ومنفتحـون وعـلى اسـتعداد كامـل لمناقـشة أي موضوع. "إيكو" وهو اسم أحـد الرسـامين الـشباب الموجـودين هنـاك، والـذي انـضم إلى

الحوار عن "بابراديشت" على الفور. تحدث بلغة إنجليزية أفضل من تلك التي أتحدث بها، وأخبرني بأن أول رسام مقدوني ذائع الصيت كان من أبناء قريتي. وكان يُدعى "ديميتر أندونوف"، وأضاف أن "بابراديشكي" هو لقبه. عندما كان "بابراديشكي" صبيًا صغيرًا، قام بمعاونة أبيه وفرقته من الباحثين المتخصصين في رسم الحيوانات؟ ما الذي يعنيه هذا بالضبط؟ سألته عن هذا اللقب. فأجاب بأنه اللقب الذي كان يطلق على كل الرسامين بشكل عام ورسامي الجص بشكل خاص في العصور البيزنطية الوسطى.

بدا الشاب بلحيته الحمراء شبيهًا بالمتخصصين في رسم الحيوانات. ومعرفته في هذا المجال على وجه الخصوص كانت عميقة للغاية وقد تشاركها بمنتهى الحماس مع الحضور مما أجبرني على مشاركة تجربتي التي لا تصدق والتي مررت بها وأنا في القطار. كان "إيكو" مفتونًا بقصتي واقترح علي أن نذهب معًا إلى المعرض الدائم لأعمال الرسامين "البابراديشكيين". والذي تم تنظيمه للاحتفال بالذكرى المائة وخمسين لميلاد "بابريديشكي". (يا لها من مصادفة عجيبة). كان المعرض في مكان قريب من الحمَّام التركي الذي تم تحويله إلى "جاليري".

- وكأن الأمر قد دبِّر من قِبل قوى عليا!

قال الشاب وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة.

شعرت بشعور متزايد من الإثارة يشبه إلى حد كبير ذلك الشعور الذي شعرت به ذات مرة وأنا طفل صغير أثناء استكشافي لبعض المباني المهجورة الموجودة في ضواحي مدينة "بروكسل".

انطلقنا من بيت الشاي على طول الطريق الوعر المغطى بالثلج المختلط بالطين حتى وصلنا إلى مبنى حجري قديم يبدو من هيئته أنه غارق في عمق وعبق الأزمنة القديمة. حيث ملأ معرض "بابراديشكي" أكبر غرفتين من غرف الحمام التركي.

كانت أعمال "بابراديشكي" ضخمة ومتنوعة ما بين لوحات ومناظر طبيعية خلابة، إلخ. وفي الحجرة المركزية، يوجد منصة تضم كل أدواته ومعداته الفنية: الحامل الخاص بلوحاته، وصورة ذاتية من زاوية جانبية له وهو في سن التسعين من عمره، وطاولة الرسم الخاصة به وفرش التلوين، والألوان التي كان يستخدمها ملفوفة في ورقة رمادية اللون وزيت بذرة الكتَّان، وكرسي دون ظهر قديم عليه وسادة باليه ورثة. أخبرني "إيكو" أن "بابراديشكي" مات وهو يرسم.

- ولكنها الفرشاة نفسها واللون الأزرق نفسه اللذان سبق وشاهدتهما في مقصورة القطار!

رنَّ صوتي في أرجاء المكان.

في وقت واحد تقريبًا، خرجنا أنا و"إيكو" بفكرة أن المرحلة التالية من رحلتنا يجب أن توجه لزيارة محل ميلاد "بابراديشكي".

عرض علي "إيكو" أن يقلني بسيارته إلى هناك، ولكنني اقترحت - في حالتنا هذه - البديل الأكثر غموضًا ألا وهو؛ القطار. لحسن الحظ كان

هنـاك قطـار متوجـه مـن "سـكوبيه" نحـو "فيلـيس" ومنهـا إلى "بوجـوميلا" و"بابراديشت"؛ لكن لسوء الحظ كان قطار شحن بضائع!

تحـرَّك قطـار الـشحن بـصعوبة بالغـة محـدثًا المزيـد مـن الـصرير والـنفخ. واستغرق ثلاث ساعات في الطريق لكي ينهي الرحلة وهو يسير عـلى سرعـة أقـل من مائة كيلومتر في الـساعة، وهـذا حتـى كـان كثـيرًا عـلي أنـا العاشـق المحـب لركوب القطارات.

كانت عربات القطار تحدث الكثير من الجلبة والضوضاء وتتحرك بمنتهى البطء، محملة بكل أنواع المسافرين والدجاج الخائف الذي يحمله أصحابه في أكيـاس مـن القماش. ولكنني أنا و"إيكو" لم نشعر ولو للحظة واحدة بالملل. لا ونحـن منهمكـين في النقاش أو عندما وقفنا ببساطة في صمت نحـدِّق مـن خـلال النوافـذ في الجبـال المغطاة بالثلوج.

نزلنا معًا في "براديـشت" ومعنـا مجموعـة مـن متـسلقي الجبـال اللـذين أرادوا قضاء عطلة نهاية الأسبوع في غزو قمة الجبل القريبة من هنا (اسم الجبل، على مـا أتذكر، يبدأ بحرف "تش"). توجهنا أنا و"إيكـو" مبـاشرًة نحـو الكنيـسة التـي تقـف بشموخ وكبرياء على تلة شهيرة في مركز القرية.

في داخل كنيسة "القديس بطـرس" والقـديس "بـولس" رحَّـب بنـا شـابٌ يُـدعى "ميثوديوس"، وهو قسٌ شاب ممتلئ لحيته حمراء تمامًا مثـل لحيـة "إيكـو" ولكنهـا أطول قليًلا.

- بالطبع أنا أعرف من هو! "أندون ديميتار" عاش حياة طويلة. وقد وافته المنية وهو في الـ95. اعتاد المجيء إلى "براديشت" بانتظام على الرغم من أن "الـشيوعيين" كافؤوه بمنحه معاش كـريم في "سـكوبيه". نعـم، اعتـاد أن يـروي لنـا قـصة عجيبـة وغريبة لدرجة أنني تصورت أنها إحدى تخاريف الشيخوخة. أنا أتذكرها جيدًا. كان يرويها وكأنه يروي حلمًا رآه. تدور القصة حول رحلة قام بها لصربيا وهـو صـبي في سن الرابعة عشر من عمره. كان في طريقه لرؤية والـده "أنـدون" الـذي أخـذ عـلى عاتقه مهمة رسم اللوحات الجدارية الخاصة بكنيسة "القديس نيكولاس" الموجـودة في مدينة "جنجيلان". أراد أن يعرف هل يمكنه أن يكون ذا فائدة لأبيه، وما إذا كان قادرًا على تعلُّم حرفة رسم الحيوانات. كانت رحلة طويلـة ومرهقـة. وفي مكـان مـا قبل بلدة "نيش" تعثرت دابته وسقط الفتى النائم عـلى الأرض. الـشيء الثـاني الـذي تذكره، كما أخبرني، أنه فجأة وجد نفسه داخـل أحـد القطـارات. في ذلـك الوقـت لم يكن متأقلمًا مع فكرة القطارات. بدا القطار له كثعبان حديدي مرعب وطويل.

تكوَّم بعيدًا في أحد الجوانب بينما هذا الوحش الحديدي يتحـرك بـسرعة لا تُصدق، وهو يقذف بالـدخان الكثيـف. وجـد نفـسه فجـأة داخـل حجـرة ضيقة داخل رحم هذا الوحش وقد التقى هناك بأحد الغرباء الأجانب الذي كـان يرتـدي ملابـس غريبـة ودون قبعـة أو عـصى للـسير. كـان بنطلونـه ذا لون أزرق متفاوت الدرجات وكان قميصه بـالٍ بعـض الـشيء. طـرح بـصوت عـالٍ عـدة أسـئلة عـلى "ديمـتري" بلغـة لم يفهمهـا وبعـدها خـرج مهـروًلا من الغرفة تاركًا الصبي أكثر رعبًـا وخوفًـا مـما كـان. اعتقـد الـصبي أن هـذا

الغريب سيلقي به من النافذة عند عودته. فـشبك الـصبي يديـه وتـضرع لـلـه أن ينقذه وألَّا يتركه يتعـذب ويقطـع إربًـا بواسـطة هـذا الـوحش ذو الفـك الحديـدي الساخن وخدمه المهتاجين بشدة.

وبينما هو جاث على ركبتيه منهمك في صلواته، رأى وميضًا عظيمًا أعمى عينيه، ووجد نفسه فجأة جريحًا ويرتجـف مـن شـدة الرعـب في قـاع حفـرة عـلى جانـب الطريق بجوار حماره المسكين. في تلك اللحظة، سمح لنفسه بأن يبكي. وإذا به وهو يحتضن حماره في ارتيـاح، تـذكَّر أنـه قـد تـرك فرشـاته وحقيبـة ألوانـه داخـل هـذا الوحش المعدني.

قررنا أنا و"إيكو" أن نقضي الليلـة في القريـة، وقـد نـتج هـذا القـرار عـن إصرار القس على بقائنا، إضافة إلى أننا في الأساس لم نرد ترك "بابراديـشت" بهـذه الـسرعة. اقترح علينا القس أن نقضي ليلتنا بأحـد المنـازل في القريـة. وفي تلـك الليلـة وتحـت سماء ممتلئة بالنجوم في باحة المنزل، ونحن نرتدي معاطفنا وقد أنعشنا طعم جـبن الماعز التي قدمه لنا مستضيفنا على أحد الموائد المنخفضة، حاولت أنـا و"إيكـو" أن نوجد صلة وعلاقة تربط ما بين التجربة الغريبة التي مررت بها في القطـار والقـصة التي رواها القس "ميثوديوس".

- ما معنى كل هذا؟ هل تعتقد أن كل ما حدث هو عبارة عن تغيرات في الزمن تحدث في تلك البلد، وأن السفر عبر الزمن ممكن!

بعد أن حملق في وجهي عن قصد لبعض الوقت، أجاب "إيكو" في النهاية:

- بالطبع، هناك أشياء تحدث بالمخالفة للتدفق الطبيعي للـزمن. أتـذكر حادثـة مشابهة لما حدث لك بالقرب من هنا في بلدة "فيليس" المجـاورة. قـام رجـل يُـدعى "هادجي كوستا كريستف" عام 1855 بطلاء كنيـسة "القـديس ديمتريـوس" في بلـدة "فيليس". (طلبت من "إيكـو" أن يـدون هـذا الاسـم بـالحروف اللاتينيـة في دفـتري وهكذا عرفت كيف أنطقها). وقـع ذلـك الرجـل باسـمه تحـت إحـدى الجـداريات، وأطلق على نفسه لقب "رسَّام حيوانات ومصور".

- معذرة، ولكنني لا أفهم مـا علاقـة الأمـر بتوقيـع "هـادجي" هـذا (نظـرت إلى دفتري). توقيع هذا الـ"كريستيف".

- الصلة تكمن في أنه في عام 1855؛ أي بأربعة أعوام قبـل مـيلاد "بابراديـشت"، والذي كما سبق وأخبرتك، كان هو آخر مـصوري الحيوانـات المقـدونيين وأول فنَّـان بالمعنى الحديث للكلمة. هذا التوقيع يُقر أن التصوير الفوتوغرافي قـد اعتُمِـد هنـا قبل "الرسم اللاإكريليكي" بوقت طويل. داخل ألبوم الـصور الخـاص بعـائلتي، كانـت هناك صور لجدي الأكبر "بروكوبيوس" قد التُقطت قبيـل قيـام "بارادیـسكي" برسـم لوحة مصنوعة من القماش لنفسه.

نعم، لطالما اعتقدت أنه من الصعب أن نفسر بعض الأشياء التي تحـدث بصورة منطقية، حتى بالنسبة لمواطن وطني مخلـص لــ"بـوارو". إن الغـرض الذي أتى بي إلى هنا - إلى "مقدونيا" - هو محاولة رفع الميدان الرئيـسي الـذي بدأ يهبط تحت وطأة المباني الكثيرة. هـذا الأمـر لم يكـن لـه تفـسير هنـدسي

منطقي، ولكن الميدان كان يحتاج إلى رفع وتعلية وهـذا هـو مجـال تخصـصي. وأنـا أتكلف مبالغ كبيرة مقابل عملي هذا. فعطلة نهاية الأسبوع التـي قـضيتها في النـزل الداخلي المسمى "لوسيا" بالقرب من بحيرة "أوخريد" كلفتني وحدها نـصف الأجـر الذي أتقاضاه أسبوعيًا ناهيك عن تكلفة الأمسيات الرائعـة التـي أقـضيها في البلـدة القديمة لأتناول كرات اللحم الطويلة والتي تسمى "كباب" المصحوبة بأطباق الفـول والمتبوعة بالقمح المسلوق بسعر قليل مقارنة بالمبلغ الموجـود في محفظتـي ولكنهـا تمثل متعة كبيرة لمعدتي.

استرسل "إيكو":

- الشيء الأكثر إثـارة في الموضـوع، هـو أن "بابراديـشكي" قـد رسـم العديـد مـن اللوحات الذاتية التي تصوره وهو في مراحل عمرية كثيرة. فقد رسـم لوحـة لنفـسه وهو صبي في سن الخامسة عشر، وأخرى عندما أصبح رجلًا عجوزًا ناضجًا. كان جليًا أن لوحة الصبي البالغ من العمر خمسة عشر عام والمرسومة عـلى القـماش لیـست انعكاسًا في المرآة ولكنها انعكاس لأزمنة مختلفة في حياته، وقبـل وقـت طويـل مـن حفظ الشكل في صور. اعتاد دومًا على استخدام الصور الفوتوغرافية في رسم صـوره الذاتية.

طلبنا المزيد من أطباق جبن الماعز قبل أن نعود إلى غرفنا غير المدفئة لننام عـلى أسرتها المفروش عليها أغطية "اليامبوليا " اليونانية (نوع مـن أنـواع الكلـيم اليـدوي المصنوع من صوف الماعز). لففت نفسي فيها. كنت أشعر بالإرهـاق. رحـت في نـوم عميق على الفور. حلمت كثيرًا، وبصورة غير مترابطة. لكن، في الصباح، كنت ما زلت أتذكر تفاصيل حلمي الأخير.

حلمتُ بأنني واقفٌ عند البوابة الأمامية للمنزل الذي يبدو مربع الشكل وعلى هيئة صندوق. ودَّعني رجل قصير ممتلئ الجسم ذو شارب مهذب. كان يرتدي ملابسه بأناقة وحذائه لامع كأنه قد انتهى من تلميعه في التو. ارتدى كذلك قبعة ذات لون رمادي فاتح على رأسه.

قال الرجل: "يا له من منظر بديع!".

قال تلك الجملة على الرغم من أن التعبير المرسوم على وجهه البشوش المعتنى به لا يُعبِّر عن استمتاعه بالمشهد.

"اذهب يا صديقي. حان موعد القطار. والقطار لن ينتظرك. فمكانك بين الأحياء. أنا سأبقى بين الأموات". وبعدها أضاف في صوت واضح تردد صداه في الحلم.

"إلى اللقاء يا صديقي".

وددت أن أقول له إنني لطالما رغبت في البقاء، لكن في حلمي كنت بالفعل أغادر راكبًا قطارًا أسرع وأحدث من الذي أتيت به إلى "بابراديشت". بدا القطار وكأنه لا يسير على قضبان على الإطلاق. لم أسمع صوت حركة القطار المعتادة، وكأنه ينزلق على هواء رفيع. تشاركت المقصورة ما شاب يافع يرتدي سروالًا من الجينز و"تيشيرتًا" ممزقًا. كان هذا المشهد شائعًا بين الشباب في ذلك الوقت. حملق الشاب في وجهي وهو في حيرة من أمره.

شعرت بالقطار وهو يسرع.

القصة العاشرة

الحاج، والإسكافي، والأحمق





"يجب ألا تُروى أحداث هذه القصة الخيالية أثناء تناول أرجل الضفادع".



في يوم من ذات الأيام قرر حاج، وإسكافي، وأحمق أن يسافروا معًا في رحلة طويلة.

كان لكل منهم سبب مختلف للقيام بهذه الرحلة. فعلى سبيل المثال، أراد الحاج أن يصل إلى الهدف الذي من المفترض أن يتوِّج سنوات طويلة عديدة قضاها في الجد والاجتهاد الروحاني.

أمَّا بالنسبة للإسكافي فقد كان يعلم أن هذا الحاج وكثيرين غيره قد يكونوا في حاجة لخدماته في رحلتهم الطويلة تلك، سواء لكي يصلحوا أحذيتهم القديمة أو ليصنعوا أحذية جديدة بعدما تتمزق أحذيتهم القديمة. كل هذا نظير سعر مقبول. أما الأحمق فقد سافر معهم بالطبع من أجل الصحبة.

سار الجميع لمسافة يوم أو يومين ليبدأ بعدها الأحمق في الشعور بالتعب. وقد قرر أن يسأل الحاج إذا ما كان من الممكن أن يحمله على ظهره لمسافة عشرة كيلو مترات أو حتى يستعيد عافيته. فهم الحاج من طلبه هذا أنه إشارة من الرب، واختبار لإيمانه، لذلك وافق على طلبه على الفور. وحمل الأحمق على ظهره، ليس فقط لمسافة عشرة كيلومترات، أو

عشرين ولكن لثلاثين كيلومترات أو أكثر. زاد ثقل الأحمق على ظهر الحاج بشكل كبير لكن أفكاره كانت دومًا طاهرة ونقية ولم يتوقف عن حمل الأحمق على ظهره حتى تمزق حذائه وغطت القروح والدمامل أقدامه. حينها عرض الإسكافي على الحاج أن يصنع له حذاءً جديدًا مقابل سعر مقبول. كان الحاج ممتنًا للإسكافي بسبب العرض الذي قدمه له وقرر أن يمنحه ضعف الثمن الذي طلبه كي يصنع له حذاءً جديدًا.

استأنف الجميع رحلتهم. وفي طريقهم، مروا ببركة، أو بالأحرى، بمستنقع، احتشد فيها جمع من الضفادع وصغارها. كانت الضفدعة الكبرى هي الإمبراطورة، وكانت تتمتع بقوى سحرية. جلست على أكبر الصخور الموجودة وأخذت تتفرس ملامح المسافرين.

أراد الإسكافي أن يهشها لتذهب بعيدًا. لكن الحاج منعه وقال:

- إن الضفدع من صنع الرب مثلك ومثلي.

في تلك الأثناء خاض الأحمق في المستنقع ونادى على الضفدعة.

- هل تحققين الأماني؟

فأجابت بهدوءٍ تام وكأنها كانت تتوقع أن تُسأل مثل هذا السؤال:

- بالطبع، أنا أفعل والدليل على ذلك أنني سأمنح ثلاثتكم ثلاث أماني لكل واحدٍ منكم أمنية.

أول من قام بالتمني هو الإسكافي.

- أمنيتي هي أن تمنحينني مصنعًا!

والتالي كان الحاج، بعد وقت قصير من التأمل والتفكير أعلن بهيبة ووقار أن أمنيته الوحيدة هي الوصول إلى هدفه. وأنه كلما كان الطريق طويلة ومليئة بالمخاطر، كلما كان الثواب والأجر أكبر وأعظم.

أمَّا الأحمق فقد صرخ بأعلى صوته وعيناه جاحظتان كعيني الضفدع وقال:

- أمَّا أنا فأمنيتي هي أن أصبح سياسيًا!

عندما عاد الإسكافي إلى وطنه وجد بالفعل مبنى كبيرًا موضوع عليه لافتة مكتوب عليها "مصنع". وبعد وقت قصير، قرر أن يترك مهنة صناعة الأحذية وبدأ في بيع السيارات المستعملة.

أما الحاج فقد عاد إلى موطنه بعد أن قضى سنين طويلة في الحج. وقد أصبح شعره أبيض، وامتلأ وجهه بالتجاعيد وكان مريضًا بشدة. لكنه كان سعيدًا. ليموت بعد ذلك بأسبوعين وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة جميلة.

أما عندما عاد الأحمق وهو يجر قدميه إلى موطنه، وجد سيارة ليموزين أحدث موديل تنتظره أمام باب منزله وبداخلها سائق يرتدي بدلة رسمية. وسيارة أخرى فارهة تقف خلفها، وبداخلها رجلان ضخمان يرتديان بدل رسمية ورأساهما حليقتان.. لم يكونا سائقين. وبعدها أصبح الأحمق أحد رجال السياسة، كافئه المنتخبون بولاية ثانية مدتها أربع سنوات. في تلك الأثناء، كان الحاج قد مات بالفعل، كما تعلمون، وأصبح الإسكافي صديقًا للأحمق وشريكًا له.

انتقل الأحمق ليعيش في قصر منيف يُطلق عليه اسم "السكن" فوق تلة عاليـة، والتي تعد أكثر المواقع تميزًا في المدينة. ليحيا فيه حياة تخلـو مـن المـشاكل، إلا مـن تلك الضفادع التي كانت تزعجه وتتجمع حول قصره كل مساء، لتـصيح بـلا هـوادة "كروك كروك، كروك، كروك، كروك......"



القصة الحادية عشر

القزم





"يجب ألا تُروى أحداث هذه القصة لطلبة الدراسات العليا الذين يدرسون الثقافة النخبوية والجماهيرية".



وجد "بونيفيس" معلمه واقفًا أمام الناقوس الزجاجي يتفحص القزم الموجود بداخله باهتمام بالغ.

- تعال! اقترب!

نادى عليه المعلم ليخبره بشيء ما دون أن يحول ناظريه عن الناقوس الزجاجي وما يحويه.

- ألا تعتقد أنه قد نما بعض الشيء منذ الأمس؟

إذا ما حكمنا على الأمر من خلال الهالات السوداء الموجودة حول عيني المعلم. فهذا ببساطة يخبرنا بأن المعلم ظل مستيقظًا طوال الليل. ولكن عينيه كانتا تلمعان أيضًا ببريق يشبه بريق عيني المحب القديم.

- انظر كيف تحرّك قليًلا.

كان الانطباع الذي تكون عند "بونيفيس" عن هذا الإنسان الصغير - أو هذا الشيء الذي يشبه الإنسان – هو أنه كان مستلقيًا كما كان دومًا دون أن يطرأ عليه أي جديد. شفتاه كما هي، ويداه، وكيس الخصيتين الخاص به وقدماه جميعها كانت بارزة ويمكن تمييزها، على الرغم من

أنها قد تشكلت بشكل جيد لكن هذا التشكيل أتى على نحو غير متناسق إذا ما تـم مقارنته بما حولها من أيدي بشرية. هذا القزم الموجود داخل الناقوس ليس أكثر من كتلة لحمية دون ملامح.

همـس "ألـسيبياديس" بـصوت طفـل مـتحمس دون أن ينتظـر إجابـة "بونيفيس":

- إنه يحقق معدلات نمو سريعة. هل تعتقد أنه قادر على رؤيتنا الآن؟

لم ينتظر إجابة "بونيفيس". أي ما كان ما سيقوله الأخـير، سـواء كـان إيجـابي أو غير ذلك، كان المعلم سيتجاهله بكل تأكيد.

ليس بعد أن حفر في صبيحة يوم الجمعة قبـل الفجـر تحـت المـشنقة بحثًـا عـن جذر "الماندريك"، وبعدما عثر عليه، أخذ يعمل الآن على حمايتـه عـن طريـق وضـعه داخل ناقوس زجاجي. قام بكل ما هو ضروري كي يتسنى له الحصول على أعضاء قـزم حي تعمل. هذه العملية أبعد ما تكون عن كونها سهلة مـن بـدايتها وحتـى نهايتهـا. فجذر "الماندريك" يجب أن يُقتلع من التربة بمنتهى الحرص. عادة ما يُستخدم في تلك العملية قفَّاز يتكون من طبقتين سـميكتين مـصنوعتين مـن جلـد الخنزيـر؛ لأن جـذر "الماندريك" قد يصبح خطيراً عند اقتلاعه من التربة، لأنه ينتج بعـض القطـرات الزيتية السامة. يلجأ البعض إلى استخدام الكلاب لاقتلاعـه بأسـنانها وعـادة مـا كان الكلب يعاني ميتة بشعة بعدها. أمَّا المعلم فقد كان يمتلك مهـارة الاقـتلاع والعنايـة الأساسـية بالجـذر منـذ لحظـة اقتلاعـه. وكـان يتمتـع بحـرص ودقـة عالية كالمعتاد. قام بتغذية وسقي العشبة بالعسل واللـبن وبـدم ديـك مـذبوح

حديثًا. وصنع لها فراشًا من التربة المأخوذة من تحت المقصلة، بعد أن قام بنقعها في السائل المنوي لشخص تم شنقه. وأضاف كذلك روث حصان يبلغ من العمر أربعين يومًا فقط. كانت إجراءات العناية بالعشبة مرهقة لكنها ذات نتائج أكيدة. وقد ساعدت "أليسبياديس" على استعادة العديد من الأقزام الخرس إلى الحياة مرة أخرى.

كان يتم توظيف هؤلاء الأقزام كنماذج مصغرة للخدم أو كبهلوانات في السيرك للتسلية. حياتهم القصيرة (فهؤلاء الأقزام يبقون على قيد الحياة لمدة لا تتجاوز الأربعة أشهر على أقصى تقدير) لا تنتقص شيئًا من قيمتهم، والتي يتم تقديرها بواسطة عدد مختار من المقربين الذين يسمح لهم المعلم بالحضور. على العكس من تلك الألعاب الميكانيكية على هيئة طيور ونحل وعازفين على العود والذين يصدرون أصواتًا أو يلعبون على أحبال مزدوجة لبعض الوقت (ولكن ليس بمهارة "فرانسيسكون دي ميلانو") ثم يتشقلبون في الهواء بعد دقائق قليلة من النشاط مثل عروسة ماريونت لا فائدة منها. فالأقزام "يعيشون" حياتهم حقًا من بدايتها وحتى نهايتها.

الحقيقة هي أن كل الأقزام حمقى، وأطرافهم غير مكتملة. فعلى سبيل المثال، تكون إحدى أذرعهم أو أقدامهم أقصر من الأخرى، مما يجعل أجسامهم تبدو غير جذابة. لا يمكن أن يتم مقارنة ميلادهم أو موتهم بحياة وموت البشر العاديين أو أي من الكائنات الحية الأخرى. فحقيقة كونهم مخلَّقين من جذر "الماندريك" الذي نبت من السائل المنوي لشخص انتهت حياته نهاية عنيفة، من هنا يمكن القول إن الأقزام هم في الحقيقة ذرية الموت. وفي حالتهم، قد نعترف بأن دور الإله "إيروس" إله الحب عند

الإغريق قد تم تبنيه من قبل الإله "ثاناتوس" إله الموت. كما أن رحيلهم من هذا العالم هو شيء إنساني جدًا. عندما يستشعر القزم بأن يوم قيامته قد دنا، تصبح هذه الكائنات المطيعة بالفطرة مضطربة وغير مستقرة. ولا يستطيعون البقاء في مكان واحد.

ولكنهم يظلوا يجوبون المنزل وقد ارتسم على وجوههم غير المكتملة استياء واضح. ويفقدون القدرة على التكلم، ويطلقون أصواتًا غاضبة وحزينة في الوقت نفسه. أصواتهم هي شيء ما وسط بين النحيب والدمدمة. وفي وقت الغسق ربما يبدؤون في الخدش والضرب على زجاج النافذة مثل القطط أو مثل الكلب الذي يريد أن يذهب إلى الخارج ليتبول. أكثر الأمور التي اكتشفها "بونيفيس" غموضًا ورعبًا عن الأقزام هي أنها تخرج في الليل من المنزل وتختفي. أما أثناء النهار، عندما يبدو واضحًا أنهم مستنزفون، يبقون داخل المنزل. وقد يزحفون نحو ركن مظلم في المنزل، وينتحبون في هدوء وينتظرون مرة أخرى حلول الظلام.

تعلم "ألسيبياديز" أن من عاداتهم أن ينتظروا غروب الشمس، وهم يترنحون ويعرجون وبدون كلمة وداع، يختفون في عتمة الليل.

- أين يختفون؟ وإلى ماذا يتحولون؟ هناك شيء غامض في الأمر. وأنا أعتقد، يا عزيزي "ونيفيس" أن لغز الوقت لا بد وأن له حلًا آخر في حالتهم. فأوقاتهم ليست كأوقات البشر. ومع ذلك، فإن هذا الكائن ما كان له أن يأتي للوجود بدون بذرة الإنسان، حتى ولو تم قذفها في حالة ألم وحرقة. فإن بذرة الرجل المحتضر تخصِّب رحم التربة. وحقيقة ميلاد

"القزم" تدحض الوهم القائل إن الحياة تسير كخط مستقيم يسافر بعناد من بدايته لنهايته.

ولكن العكس تمامًا هـو الـصحيح! فـالقزم قـد وُلِـد في النهايـة بكـل مـا تحملـه الكلمة من معنى. وهنا يكون القزم قد سخر من النكتـة القاسـية المفروضـة علينـا؛ وهي الاعتقاد السائد بأن الوقت يسير في اتجاه واحد وأن الشيخوخة لا رجعة فيها. هذا "الأومينو" أو "القزم" سوف يثبت صحة الفرضية المقابلة!

كان "بونيفيس" هو الشاهد المباشر والمذهول من هذا الكم من الهـوس بهـؤلاء الأقزام. لدرجة أن المعلم لم يذهب قط بعيدًا عن الجنـين الموجـود داخـل النـاقوس الزجـاجي، مـدعمًا غذائـه بـالتوت الـبري، وسـمك الـسلور وزيـت عـشبة القـديس "يوحنا".

كان "بونيفيس" في عامه السابع من التتلمذ على يد "ألسيبياديس" وعلى الـرغم من مرور كل هذا الوقت، ما زال يذكر اليوم الذي تم قبوله فيه تلميـذًا للمعلـم. لم يكن الأمر سهًلا، على الرغم من أن عمه الذي يُعتبر، أحد أثرى النبلاء في المدينة، قد توسط له.

دعاه المعلم إلى منزله حيث معمله. كـان "بـونيفيس" قـد بلـغ بالفعـل الثامنـة عشرة وقد قرأ كتاب "خطاب عن كرامة الإنسان" ولكن هذا لم يكن بالـشيء الكبـير ولم يساعده كثيرًا كما تصور ولم يزد من ثقته بنفسه.

استمر اختبار المعلم لـ"بونيفيس" لمدة ثلاثة أيام متتالية. بالنسبة للأسئلة الأساسية؛ كانت تنصب على فكرة ضبط الوقت، وأساسيات المربع السحري، والرسم بالحبر الأحمر وذوبانه في الماء، وعن الطبيعة المزدوجة للنشادر، وترجمة التقويم في الأيام والعقود ووفقًا لمسار القمر. كانت أسئلته سريعة وواضحة ويتم إلقاؤها دون تردد. عندما طلب منه المعلم أن يطبق نظريات الرياضيات الفلكية على المشكلات الطبية الملموسة، على سبيل المثال، على الدور الذي تقوم به "الغدة الصعترية" والقلب اعتمادًا على تأثيرات الشمس، وطريقة عمل الرئتين المرتبطة بالزئبق، وطريقة عمل العين والمرارة اعتمادًا على كوكب "المريخ". كان "بونيفيس" في حاجة إلى التفكير لبعض الوقت وقد كافح من أجل تقديم الإجابات الصحيحة.

كان ينصت بحرص لتوضيحات "ألسيبياديس". وفي اليوم الأخير للامتحانات، تطرق الاختبار إلى العوالم الأكثر سرية، والأرواح النجمية التي كانت تسكن الأجرام السماوية، وتتحكم في الأرواح البشرية معهم ومن خلالهم.

وأرواح البناء التي تصنع سلاسل الطاقة، والأرواح المسجلة التي تركت ما قامت بتدوينه عن استخدام سلاسل الطاقة تلك للاستشارات في المستقبل، والتنبؤات والعلاج. قد يبقى "بونيفس" صامتًا لبعض الوقت، لكن خديه كانتا تشتعلان من شدة الحمرة كطفل صغير يتعلم حروف الهجاء. مضطرب ومرعوب ومتلهف لتلقي الإجابات الصحيحة من المعلم. والمعلم ترتسم السعادة على ملامحه بوضوح بسبب هذا التواصل. في نهاية الاختبار، أعلن المعلم أن المعرفة هي شيء غامض. ففي أوقاتٍ تصبح

متأكدًا من أنك تمتلك ناصيتها، وتشبعها بـالكثير مـن الحـشو في أوقـات أخـرى، وفي أوقات أخرى تصبح خائفًا بسبب عدم امتلاكها، وتقطر في الكلمات التي تستخدمها أو تصمت تمامًا.

لا يختلف الأمر كثيرًا عن عالم الموسيقى، ففـي البدايـة تكـون الأغنيـة مزدحمـة بالنغمات، بيـنما فـيما يـلي تحـصل الـنغمات عـلى عمـق أكـبر مـن الوقفـات التـي تتخلـلـها.

- من الغد ستصبح أبواب منزلي مفتوحة على مصراعيها لاستقبالك. سوف نعمل معًا! في أول الأمر ستكون الجهود المبذولة أكبر وأضخم والمتعة قد تكون أقـل. لكـن بمرور الوقت ستزداد المتعة. عندما تكون قد تمكنت بالفعل من بناء أسـس قلعتـك في السماء، ساعتها لن تصبح قادرًا على العيش خارجها مرة أخرى.

في الحقيقة، كان "ألسيبياديس" يصف مكونات حياته هـو. ولكنـه أثبـت أن مـا يفعله حقيقيًا لأبعد الحدود: على الرغم من التباين الواضح بين الشخـصيتين، إلا أن "بونيفيس" قد نجح ولحد بعيد في إدارة سـنوات التتلمـذ الـسبع التـي قـضاها مـع المعلم، من خلال تفانيه في العمل واهتمامه المستمر به؟ "لـكي يمـلأ معبـده بـالكثير من المنحوتات وبالتناغم..." كما اعتاد معلمه أن يقول، مـن أجـل أن "ينـأى بجانبـه عن غموض الحكمة".

على الرغم من المعرفة الفاضـلة التـي حـصل عليهـا خـلال الوقـت الـذي أمضياه معًا، فـ"بونيفيس" لم يفقد أيًا من فضوله الـصبياني. فالوضـوح الـذي اسـتخدمه المعلـم كي يورطـه في تجاربـه كـان يـصيبه بـالخوف والرعـب

حينًا أو كان يغمره بابتسامات لم يستطع السيطرة عليها. يعتمد الأمر كله على فكرة ما إذا تم التصديق على فرضياته أو بقيت غامضة كما هي.

- ما الذي تعتقده؟ كيف ترانا؟ ما هي الصورة التي ترسمها لنا؟ هل هي صور حقيقية؟ هل هي موجودة حقًا؟ هل أنا موجود؟

وأنا أقف جامدًا بجوار المعلم المتقوس الظهر الذي يحملق بشغف في الناقوس الزجاجي، في تلك اللحظة لم يستطع "بونيفيس" أن يكبح جماح شعوره بأنهم في هذه اللحظة قد سارا بالفعل في مفترق طرق وأن هناك خطرًا محدقًا يهددهم. تذكر "بونيفيس" شيئًا كان المعلم قد أخبره به في ساعة متأخرة من الليل، عندما قام تحت إشرافه بتحضير عدة قنينات من مرهم مصنوع من "بذر الينسون"، والبصل، وزيت الزيتون، والبقدونس المضاد للالتهابات وآلام الأذن:

- الآن تعلمت كيف تصنع هذا الدواء كتلميذ يجوب بحر المعرفة. أتمنى أنك برعايتي ومساعدتي البسيطة، ستتمكن يومًا ما من العبور للشاطئ الآخر. ولا أحد آخر إلا أنت بنفسك، يا "بونيفيس" الطيب، بكل مكتسباتك، إخلاصك وتفانيك وشجاعتك، ستصبح قادرًا على الوصول إلى الشاطئ المقابل للبحر المسمى "الوقت".

الآن وهو يراقب عن كثب المعلم "ألسيبياديس" وهو يتابع تتطور القزم بنوع من النشوة والسعادة، رأى "بونيفيس، أنه على النقيض مما قاله معلمه، لن يكون قادرًا على بلوغ الشاطئ الأخر للبحر المسمى بـ"الوقت" على الرغم من كل شيء.

- في حالتي يا "بونيفيس"، هناك تحدي ما هو الذي دفعني لأن أبتدع هذا القزم بصورة أكثر مثالية وأكثر إتقان عن بقية الأقزام الأخرى التي سبق وأنتجتها ألا وهي: الحقيقة. أردت أن أبتكر جسدًا كالقفاز وعقلًا يتوافق معه كما تتوافق اليد مع القفاز. أنت تعلم أننا عندما نفقد أجسامنا فإننا نرى، إذا ما تطورنا بشكل كافي في رحلتنا الأرضية، الجوانب النجمية لكل الظواهر، ومن خلال أحلامنا يمكننا حتى أن نؤثر على أفكار الأخرين. على الرغم، من أننا قد نجد أن أصعب شيء هو أن نتواصل جسديًا، كجسد مع جسد أخر، من خلال القزم، على الرغم...

- أنت تقصد من خلال "نفسه" الثانية؟

- بالضبط، لأن بهذه الطريقة سوف يدرك البريء الذي تم إعدامه أنه سيصبح مرة أخرى على وعي بالذبذبات والاهتزازات والتأثيرات الخاصة بالمسألة المادية.

- لكن، ألن يتضمن ذلك ردة فعل في الاتجاه المقابل أيضًا؟ القزم، أقصد الرجل المشنوق، قد يهتز ويؤثر على هذا العالم وعلينا!

- هذا على وجه الدقة هو ما آمل في تحقيقه!

قال "ألسيبياديس" وهو ينهض واقفًا؟ التمعت عيناه بنوع من العمق. تلك هي اللحظة التي ستظهر فيها الحقيقة.

- ألهذا السبب تبذل كل هذه الجهود المضنية كي تجعل هذا القزم يتحدث؟

- سوف يتحدث، سترى! وبصوته.. صوت "الكونـت موريزيـو بنيـديتي" وسـوف نكتشف حقيقة ما حدث بالفعل.

- ولكن، الجميع يعرف أنه قد أُعدِم بسبب ارتكابه لجريمة قتل.

تمتم "بونيفيس" بطريقة بدا منها بأنه غير مقتنع. وبأوامر من تم إعدامـه؟ أنـا أسألك؟ من الذي أمر بشنق "كونت بنديتي"؟ أنا عالم يا عزيزي "بونيفيس" ولـستُ سياسيًا. أنا مهتم بالسيطرة على العمليات الكيميائية، وليس بالسيطرة عـلى النـاس. ولكنني لو كنت سياسيًا ما كنت لأحكم مستخدمًا كل هذه القسوة وعـدم الرحمـة تجاه أعدائي كما يفعل من هم في السلطة الآن.

- أسيادنا؟

اندفع "بونيفيس" في الرد، ولكنه لاحظ على الفور النفاق البادي في تواضعه.

- بالطبع، هم أسيادنا، فليكن الرب مع أي شخص يجرؤ عـلى أن يجهـر بـالقول بشيء ضدهم. سوف يتم التعامل معه بأسلوب رفيـع. وسـوف يلتهمـه الظـلام دون أن يظهر له أثر. دون أن يُسمع له صوت، بدون ألم.

قالهـا "أليـسيبباديس" دون أن يخفـي شـعوره بالاسـتهزاء والـسخرية والاحتقـار، أكمل قائلًا:

- وهذا الأمر يجد صدى جيدًا مع الناس لأنهم خائفون وسذج.

- ولكنهم شيدوا جامعة. وقام العديد من العلماء القادمين مـن "فلورنـسا" بزيـارة القصر، مثل: "بوليزيانو"، و"فيتشينو"، و"ميراندولا".

- أعرف. أعرف. كنت هناك استمعت لهم بمنتهـى الـسعادة والـسرور، وبـشكل نقدي لاذع أيضًا. ولكن، يا صديقي الطيب، كل هـذا الولـع بالمحـاضرات، وحفـلات الاستقبال، والولائم، وما يُطلق عليهم اسم أسيادنا ليس لهـم أي علاقـة بالاستـسلام، والذل، والخنوع الـذي يعـاني منـه مواطنينـا، ناهيـك عـن ابتـذالهم. كـان الكونـت "بنديتي" واحدًا من القلائل الذين تجرؤوا على نقد الحكومة بصوتٍ عالٍ مستعرضًا الإهمال الحقيقي للمواطنين العاديين من قبـل الحكومـة، أنـت تتفـق معـي أن الاحتفالات لا يمكنها أن تعوِّض الحيـاة، ولكـن يمكـن اسـتخدامها لـصرف انتبـاه العامة بمنتهى الكفاءة. فمحاكمة "الكونت" بسبب قتله لأخيـه و"أليـساندرا دي برانا" كانت أحد سبل صرف الانتباه. منتهى التزوير، ولا يمكـن لأحـد أن يثنينـي عن رأيي بأن ما حدث كان مناورة خبيثة للغاية من قبل الحكومة لـكي تـتخلص من أحد معارضيها.

أمسك "أليسباديس" بقلمه وبدأ يكتب حروفًا فوق جسد القزم. كان لون القلم أبيض ولكن الحروف كانت تُكتب بلون أحمر داكن كلون الدم. تعـرَّف "بـونيفيس" على الحروف التي كُتبت باللغة اللاتينية، والعبرية، والحروف اليونانيـة، لكـن بقيـة الحروف كانت مجهولة تمامًا بالنسبة له.

حتى قبل أن يكوِّن السؤال في مخيلته. أجاب المعلم:

- هناك بعض الحروف المقتبسة من أبجدية "جلاجوليستية"، الشقيقة الـصغرى للأبجدية "الجلاجوليستية" الدائرية التي تم تقـديمها للرومـان بواسـطة الفيلـسوف "قسطنطين" منذ عدة قرون بصحبة البقايا الأثرية للقديس "كليمنت" الروماني.

أول شخصين جعلاها معروفة كانا "أثناسيوس الأول" أمين المكتبة و"جـودريتش" مـن "فليتري". هذه الحروف ما زالت تُستخدم في جزيرة "فجليا" في المحيط الأدرياتيكي، والتـي يطلق عليها "السلافيين" اسم "كـرك". وفي مدينـة "زارا"، وعـلى طـول الطريـق المـؤدي إلى الساحل الأدرياتيكي.

أومأ "بونيفيس" برأسه، على الرغم من عدم قدرته على استيعاب هـذه الهجمـة من المعلومات الجديدة. فقد كان معتادًا على الإنصات بحرص لكل ما يقوله المعلـم حتى يتذكره كله فيما بعد ويتمكن مـن الحـصول عـلى المزيـد مـن التوضـيحات في وقت لاحق من القواميس الموجودة في المكتبة.

- أضفتُ الأبجدية "جلاجوليستية" مع اللاتينية، واليونانية، والعبرية لـكي أخفـى كل العلوم بداخله.. العلوم والمعـارف التـي تتـضمن أفكـارًا نقيـة. أنـا أرسـم جـذع الكلمة، وأغذيها بالحروف.

استطالت الفروع وتـداخلت مـع بعـضها الـبعض ومـع غيرهـا مـن جـذوع الكلمات التي تكمل بعضها. ولهذا الـسبب اسـتخدمت أبجديـة مختلفـة حتـى يتمكن من تعلُّم وتذكُّر الشكل، والترتيـب، والاسـتخدامات الخاصـة بـالحروف.. لكي يتكلم.. لهذا السبب أنا أسـتخدم قلـمًا مـصنوعًا مـن ريـشة بجعـة. أتعلـم أن هنـاك سـحر يمكنـه أن يحـوِّل البجعـة إلى إنـسان والعكـس صـحيح. الإلـه

"زيوس" أغوى "ليدا" وهو في هيئة بجعة.. واللون الأحمر هو عصير الشمندر الذي تـم تكثيفه وغليه تسع مرات حتى يصبح دائمًا لا يمكن إزالته.

على الرغم من أن الحروف قد تمت كتابتها بخفة، إلا أن بشرة القزم قد تشربتها ببطء شديد. لكن الخطوط العريضة سوف تبقى مرئية لعشرة أيام أخرى. والقزم ما زال أخرسَ.

- معلمي، إنه لم يتحدث حتى الآن.

- كن صبورًا يا "بونيفيس". عندما تشير قـرون الهـلال إلى الاتجـاه نفـسه الـذي كتبت فيه هذه الحروف، سيأتي الوقت الذي تسمع فيه صوته.

- أرجو أن تتفهم ارتباكي. هذا.. العمل.. غير متوقع بدرجة ما بالنسبة لي.

- اصمت!

قاطعه "ألسيباديس"، أضاف قائلًا:

- انظر كيف يتنفس!

تم وضع الشمعدان الذي انعكس ضـوؤه عـلى النـاقوس الزجـاجي المـستقر عـلى الطاولة. اضطر "بونيفيس" إلى تحريكه بعض الشيء إلى الـداخل ليـسقط الـضوء عـلى القزم الذي بدا كمثلث مظلم أكبر بكثير من الطاولة.

لقد نما هذا الطفل القبـيح العفـن بـسرعة كبـيرة. وأضـاف نـور الـشموع للـون وجـه القـزم الأصـفر الـشاحب المزيـد مـن الاصـفرار والـشحوب. بـدا

الوجه منتفخًا ومتورمًا وكأن هذا القـزم قـد أتى مـن عـالم أخـر، لـيس فقـط بـسبب تعبيراته الشمعية، ولكن أيضًا بسبب ملامحه الشاذة والمتباينة. فعلى سـبيل المثـال، كانت عينه اليسرى أكثر ارتفاعًا من عينه اليمنى. وخصل شعر هذا الكائن المتصلب كانت ذات لون أحمر ناري وكأنها قد زرعت على رأسـه بـصورة مـصطنعة وليـست خصل شعر طبيعية. وشفتاه كانتا ضخمة جدًا وناعمة.

شعر "بونيفيس" بأن الهواء حوله أصبح أكـثر ثقًـلا وتعفنًـا كلـما نظـر إلى هـذا الكائن، وكأنه في غرفة لم يتم تهويتها منذ وقت طويل. تحولت نظرته إلى صدر هذا الكائن الخالي من الشعر والذي يعلو ويهبط بأنفاس سريعة وصغيرة تطـارد بعـضها البعض وكأنها تتعافى من إجهاد شديد.

- دعنا نبعد الناقوس عنه. فهو بحاجة إلى المزيد من الهواء.

كان النـاقوس الزجـاجي يحتـوي عـلى فتحـة صـغيرة تـسمح بتـدفق الهـواء إلى داخله. لكن "ألسيبياديس" كان متعجلًا ومـن فـرط عجلتـه أوشـك عـلى أن يـسقط الناقوس الزجاجي عندما حاول أن يرفعه. فكَّر "بونيفيس": "مـر وقـت طويـل منـذ آخر مرة رأيت فيها المعلم سعيدًا".

- نعم.. ها هو.. أصبح بيننا.

عـلا صـوت تـنفس القـزم شـيئًا فـشيئًا. فكـان نـصفه صـوت ونـصفه الآخر أصواتًا غير مفهومة.. "جررر.. جرررر... جررر". كانـت تلـك الأصـوات

الغريبة تخرج من بين شفتيه المتورمتين. تمكنا من التعرف على الخطوط العريضة المشوشة الخاصة بالإدغام أووو... بين نوبات الغرغرة.

- يمكنني أن أرى كل شيء وهو يحدث. "بونيفيس"! شظايا الأفكار التي كانت يومًا ما تنتمي للكونت "ماوريتسيو" بدأت تتشكل في رأسه. لقد لاحظت الانزعاج الذي بدا عليه. لا تتراجع! فلتسألني عن أكثر شيء أزعجك: "هل سيتحدث؟". حسنًا، أيها المحترم "بونيفيس" (هل يحمل صوته نبرة استهزاء وسخرية؟) - فعقولنا تأتي من عند الرب وعلينا أن نثق بهم. هناك سبب ما وراء وجود كل تلك الأشياء في هذا العالم. فالبوصلة على سبيل المثال موجودة كي تخبرنا أين نحن وإلى أين نحن ذاهبون؟ والبارود موجود ليمكننا من قتل الناس من مسافة بعيدة. فالناس الذي يحملون فوق أعناقهم رؤوس الكلاب والأمازونيات لا يخبروننا فقط عن حقيقتهم، بل وعن حقيقتنا نحن أيضًا.

كان "بونيفيس" ينصت إلى حديث معلمه الجذل، وارتعاشة مليئة بالحيرة، والقلق، والارتباك تنتابه.

- والليلة سيحصل على اسمه: "ماوريتسيو". (نطقاها معًا: المعلم و"بونيفيس" في وقت واحد). سوف نخاطبه وكأنه قد وُلد من جديد. لقد أعدنا له حياته من جديد، "بونيفيس"! لقد بعثنا "كونت ماوريتسيو" من جديد!

كانت الأقزام السابقة يتم تمييزها عن بعضها البعض بالأرقام بدلًا من الأسماء. بالنسبة "لبونيفيس"، بدت تلك الأسماء الرقمية أكثر جمالًا وملاءمة لأقدارهم الحزينة: (الأول، الثاني، الثالث....) وكان القزم الحالي

هو تاسعهم وكان سيُمنح اسم "نونو" – ويعني التاسع - إن لم تكن نوايا وتوقعات المعلم وكذلك معنى وجوده، مختلفة.

كان رأيه في قضية "الكونت ماوريتسيو بنديتي" هو نفسه كرأي الغالبية العظمى من مواطني الجمهورية: إنها جريمة قتل ذات دوافع سياسية. ولكن، لكي نوضح الأمر صراحة - أو حتى لنهمس بالحقيقة فيما بيننا - يتطلب هذا الأمر قدرًا كبيرًا من الشجاعة، لأن الجواسيس ينتشرون في كل مكان والعقاب ينزل سريعًا وبصمت. من المعروف أن عائلة "بنديتي" كانت عائلة كبيرة وعريقة لعقود وقليل من العائلات يمكنهم مضاهاتهم في النبل والثروة. "برناندو" والد "ماوريتسيو" وأخيه الأصغر "جاكوب" كان ولسنوات عديدة، حتى وفاته، عضوًا في مجلس الستة، وهو يُعد أعلى سلطة تحكم في الجمهورية.

كان من المتوقع أن ابنه" ماوريتسيو" سيحل محله في المجلس. ولكن، هذا لم يحدث. على الأقل ليس في التو. ذلك لأن الإعلان الرسمي العام قد أُعلن بنفاق ومكر، وقد يذهب البعض إلى القول بخبث ودهاء إن "الكونت ماوريتسيو" يجب أن يخضع للتحقيق والفحص قبيل اختياره عضوًا في مجلس الستة". تورط "الكونت" في عددٍ من الأحداث العامة وقيل إن كل هذا يؤكد على طبيعته الفظة، والعنيفة، وافتقاره إلى الحظوة والمكانة التي يجب أن تتوافر في كل من يتقدم لشغل هذا المنصب الرفيع والمسؤول.

وفي الواقع، كان "ماوريتسيو" يفتقر حقيقة للنبل الداخلي الذي كان يتمتع به أبوه، وكان يميل إلى التسبب في المشاجرات والمضايقات

والمشاحنات، ولم يكن يماثل عدد كبير من الشباب في هذه المدينة. لقد كانوا يحكمون بواسطة العنصر الناري، الغضب، الساخن والجاف.. ثمار شبابهم المتعجل. فوفقًا لما رواه المعلم، فإن غضب وعصبية "ماوريتسيو" تم استخدامها واستغلالها من قبل أعدائه الأقوياء ومعارضيه من أجل الإضرار به وتدميره.

لثلاث سنوات، ظل "الكونت" متزوجًا من أجمل امرأة بالمدينة. وذات مرة، حظي "بونيفيس" بفرصة نادرة لرؤية "أليساندرا دي برانا" - والتي صارت فيما بعد "الكونتيسة بنديتي" - وهي تمر في الشارع. كانت تتمتع بجمال نادر لدرجة أن أي شخص في موقفه قد يُصاب بالصدمة والذهول من جاذبيتها وروعتها.

كانت تكبره بخمس أو ست سنوات، والذي كان يعتبر فارق كبير في السن على الرغم من أن "بونيفيس" كان قد بلغ بالفعل سن الرشد، لكن جمالها الطاغي وحسنها البديع مر من خلاله. وكأن الزمن لا يؤثر فيه، كجمال "هيلين" أميرة طروادة أو "سيمونيتا فسبوتشي" إحدى أجمل نساء عصر النهضة.

لقد استحقت عن جدارة الاسم الذي كانت معروفة به في أرجاء المدينة: الجميلة. فشعرها الجامح الأحمر، والمزين بإكليل من اللؤلؤ، جعل بشرتها ناصعة البياض أكثر بياضًا مقارنة باللؤلؤ. النساء والفتيات في المدينة لم يدخرن جهدًا ولم تنقصهن الحيلة في محاولة الوصول إلى هذا الشحوب ولم يفلحن.

لم يعرف "بونيفيس" أن الجزء الأكبر من دخل المعلم يأتي من بيعه لمبيضات البشرة للسيدات. لكن في حالة "أليساندرا دي برانا"، فإن شحوبها الرقيق وخصل شعرها الحمراء النارية كانت هبة من الطبيعة ومن الرب. وأن المعجزة الثالثة للجمال التي كشف عنها النقاب للرائي المتيم (المحرج بسبب إعجابه غير المخفي) كان متجسدًا في عينيها اللوزيتين ذات اللون البني الفاتح. عيناها قد توصفان بالحزينة لولا هذا الضحك والفرح والمرح الذي يرقص بهما والذي ينبع من عمق مخفي. وجرأتهما وتفتحهما وانطلاقتهما، حتى نظراتها الثاقبة زادت من حيرة "بونيفيس" وارتباكه.

كان "بونيفيس" يستمع كطفل صغير للقصص التي تُروى في المدينة عن "الجميلة" وعن جمالها الخارق، وعن غنائها الرائع والمدهش ولعبها على آلة الفلوت. قيل أيضًا إنها كانت تنظم الشعر وتهديه للحب وتزينه بأناقة رقيقة.

وكذلك كان إخلاصها "للكونت ماوريتسيو بنديتي"، على الرغم من كونه رجلًا جلفًا وخشنًا، وغير مهندم وبائسًا، ويتسبب في الإزعاج للجميع. يمكن سماع السيدات العجائز وهن يتحدثن عنهما ويؤكدن أنها قد أُجبرت على الزواج منه من أجل ثروته.

فعلى الرغم من أن "أليساندرا دي برنا" تنحدر من إحدى أعرق العائلات النبيلة في المدينة، فالفتاة كانت فقيرة، وكانت هذه هي فرصتها الأخيرة لكي تحصل على بيت غني. ولكن، استمرت النميمة في التعجب من

تصرف والد "ماوريتسيو" والسر وراء عدم اختيارها زوجة لشقيق "ماوريتسيو" الأصغر "الكونت جيكوب"، الذي كان، على النقيض من أخيه، مرحًا ولعوبًا، ومحبًا للفن، وعلى كل الأحوال كان سيكون أكثر ملائمة من أخيه لها ويصبح هو زوج "أليساندرا" الجميلة.

الإجابة الواضحة هي أن "ماوريتسيو" - باعتباره الابن البكر - كان سيرث ثروة عائلة "بنديتي". وكان يخطط منذ وقت طويل لكي تصبح تلك الفتاة الجميلة عريقة النسب أم أبنائه. في تلك المدينة، التي كانت تفتخر بروحها الحرة وروح الفكاهة والإثارة، أُمرت كل النساء بعدم ارتداء أي لون بخلاف اللون الأسود بعد مرور ست سنوات من الزواج. كان يُسمح بارتداء الياقة العالية المنفوشة والأكمام العريضة بعد مرور 12 عامًا أخرى على الزواج قبل أن تختفي هذه العادة هي الأخرى.

- نحن لا نورط أنفسنا في انتهاك المحارم، إن كان هذا هو ما يقلقك يا "بونيفيس". نحن لم نبعث رجلًا ميتًا لمجرد أننا نريد القيام بهذا، بل لكي نصحح الخطأ الذي عانى منه. إن الرب يحب هؤلاء الذين يعملون بجد واجتهاد، هؤلاء الذين يكافحون من أجل أن ينجزوا مهمة ما، وبعض الواجبات في حياتهم، لهؤلاء الذين فشلوا بسلبية في تحريك وقلقلة الفكر المعتاد الذي يرى أن حضور الإنسان للصلوات والدروس في الكنيسة هو مهمتهم الوحيدة. "الكونت ماوريتسيو"، إن تمكننا من إعادته للحياة، قد لا يتمتع بنفس الهيئة الجسدية التي كان عليها قبل إعدامه ولكنه قد يكون قادرًا على اطلاعنا على الحقيقة التي مُنع من قولها أمام هؤلاء القضاة المدعين. كتب المبجل "بيتشو" في مرة من المرات أن "الرب قد منح الإنسان

القدرة على الاختيار وكذلك الهيئة التي سيعيش بها على الأرض". إن اختـار أن يعـيش كنبات، فسيصبح نباتًا وإن اختار أن يعيش على هيئة كلب فسوف يصبح كلبًا، ولكنـه إن اختار أن يكون إنسانًا فهو قد اختار السلوك الذي سيحيا بـه". وعـلى النقـيض مـن الجسد البشري الطبيعي، فجسد هذا القزم فانٍ. وحياته قصيرة للغاية، لكنها سـتمكننا من إحياء روح "الكونت ماوريتسيو" لتخبرنا فيما أثق بشدة بأنه الحقيقـة، وأنـه كـان بريئًا!

على الرغم من أن الجمهورية كانت معتادة على الأحداث المظلمة والشنيعة، إلا أن خبر تلك الجريمة الشنعاء قد تم تلقيه بخوف ورعب. جميلة الجميلات الكريمـة الـسمحة "أليـساندرا دي برانـا" والكونـت النبيـل "جـاكوب" تـم ذبحهـما بمنتهـى القسوة!

تم استدعاء المعلم "ألسيبياديس" على الفور إلى مسرح الجريمة، لمـا يتمتـع بـه مـن احـترام وتقـدير كعـالم كبـير في الطـب، ولديـه معرفـة "بـأبقراط"، و"جـالين" و"أرسطو" وكل المعلمين المنحدرين مـن مدرسـة "سـاليرنو مونبلييـه". تلـك المعرفـة الواسعة والغزيرة التي يتمتع بها ويطبقها على مرضاه بنجاح.

عند وصـول المعلـم "ألـسبياديس"، كانـت الـسيدة الجميلـة قـد لفظـت بالفعـل أنفاسـها الأخـيرة، لكـن "الكونـت جـاكوب" كـان لا يـزال عـلى قيـد الحياة، أو كـان بـالأحرى في النـزع الأخـير، حيـث بـدأت حيويتـه في الـتلاشي وضربـات قلبـه أصـبحت تقريبًـا غـير مـسموعة. كـان نبـضه يـتلاشى. وضـع "بونيفيس" أربعة أصابع على الوريـد، شـعر بـالنبض بـصورة بـسيطة تحـت

الصباع الأول، وبعدها أصبح أكثر وضوحًا تحت الإصبع الثاني، وأكثر تحت الإصبع الثالث، ولكنه خفت تمامًا تحت الأصبع الرابع.

هذا النوع من النبض يقر بما لا يدع مجال للشك أن النتيجة مميتة. مشهد مرعب. والجرح كان غائرًا في الجزء العلوي من الرقبة تحديدًا تحت الذقن حيث قُطعت الأوعية الدموية الموجودة بالرقبة وكذلك الأوتار مما يؤكد أن الذي قام بالجريمة هو قاتل محترف.

ما زال الدم يتدفق بغزارة من الجرح. كانت عينا الرجل مفتوحتين. وكان يحاول أن يقول شيئًا ما، ولكن ما خرج من فمه، كان غير واضح وغير مفهوم وكأنما قطعة من القماش قد حُشرت في فمه. انحنيت فوقه وتمكنت بصعوبة بالغة من فهم التالي: "هناك أمل في الخلاص". نعم، "بونيفيس" الطيب، هذا بالضبط ما قاله: "هناك أمل في الخلاص". كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي نطق بها والتي أتبعها بصوت غرغرة آخر نفس ثم وفاته.

تم على الفور توجيه الاتهام "للكونت ماوريتسيو" بارتكاب جريمة قتل مزدوجة بدافع الغيرة. وقد تمت محاكمته بمنتهى السرعة وقد أتى التصديق على الحكم متسرعًا هو الآخر على النحو نفسه: الإعدام شنقًا. لم تُقبل الاستئنافات التي تم تقديمها من قبل أصدقائه من أجل إطالة مدة المحاكمة حتى يتسنى لهم جمع الأدلة المضادة التي قد تثبت براءة موكلهم من ارتكاب تلك الجريمة البشعة.

- كل هذا قد تم بسرعة عندما كانت هناك أدلة واضحة ومجال واسع للشك، عزيزي "ونيفيس" الطيب! لماذا تم قتل "كونت جاكوب" بهذا الأسلوب البشع وليس في مبارزة؟ ولماذا تم قتل "أليساندرا دي برانا" هكذا؟ كل ما أعرفه أن "الكونت ماوريتسيو" قد يصرخ في وجه امرأة، وحتى قد يهينها بشدة، لكن من المستحيل أن يقتل واحدة بدم بارد ويمثل هذه الطريقة البشعة.

بعد مرور أيام قليلة على مقتل "الكونت جاكوب" والجميلة "أليساندرا"، أُرسل "الكونت ماوريتسيو بنديتي" إلى المشنقة وقد اشتعلت عيناه بالغيظ وتدفقت اللعنات من شفتيه: "سوف أعود، أيها الأوغاد! وسوف أنتقم!". صاح "الكونت" قبل أن يتم شنقه.

- رحل عن هذا العالم وهو في حالة غضب عارم وثائر.

لم يعد القزم في حاجة إلى حماية الناقوس الزجاجي. وسرعان ما بدأ يتحرك معتمدًا على نفسه، مترنحًا في خطاه مثله مثل بقية الأقزام السابقين. لأنه كان أكبر في الحجم، وأثقل في الوزن وأبطأ في الخطى.

كان يترنح بشكل أخرق تحت عناية ورعاية "ألسيبياديس" الذي صاحب خطاه في جميع أرجاء المنزل. يتأرجح من قدمه الأطول إلى قدمه الأقصر، مغمغمًا، وقد تصاحب خطواته المترنحة وقفات في بعض الأحيان، سواء أمام السرير الحديدي الكبير أو في المكتبة بكل ما تحويه من مخطوطات قديمة أو على الرفوف التي تحمل أنابيب الاختبار الزجاجية.

لدرجة أنه حاول ذا ت مرة أن يلتقط إحدى الأنابيب الزجاجية من على الرف ولحسن الحظ أنها كانت فارغة، ولكنها انزلقت من بين أصابعه وسقطت على الأرض وتكسرت إلى ألف قطعة.

أسرع المعلم لكي يلملم الشظايا المكسرة. سأل:

- هل أنت بخير، "ماوريتسيو"؟ هل أذيت نفسك؟ ماذا تقول؟.. "أكوا"!

صرخ المعلم.

- "بونيفيس" لقد قال "أكوا "! هو يريد بعض الماء. هو يفهم كل شيء!

وبدأ المعلم يقفز كالطفل الصغير.

- من الآن فصاعدًا، سوف يجلس "ماوريتسيو" على الطاولة معنا!

أعلنها المعلم رسميًا بعد أن لملم نفسه مرة ثانية، وسوف نتشارك طعامنا معًا.

وجد "بونيفيس" هذا الأمر سخيفًا لأن المعلم عادة ما كان ينشغل بعمله، ويفوت بعض الوجبات بسبب انهماكه في العمل، وحتى عندما يتذكر، فهو في الغالب يتناول كسرة خبز ويضع عليها بعض البصل بعد أن يقوم بغسله ببعض النبيذ المخفف.

ولكنه هذه المرة قام بتحضير المائدة بكبرياء وفخر واضعًا المفرش القماش الفلمنكي المطرّز وأجود أدوات المائدة الفضية على المائدة. بدأت

الوجبة بتناول بعض من حساء الخضروات المجففة التي التهمها القزم بشهية كبيرة وباستمتاع. الأدهى من ذلك أنه كان يغمغم عندما انتهى من كامل طعامه.

كان المعلم فرحًا للغاية! كل كلمة استطاع القزم أن يخرجها من فمه وهو يلتهم الأرنب في صلصة الثوم والملفوف مع الثوم قابلتها موجة حارة من السعادة والإثارة من ناحية المعلم. على الرغم من نطقه غير الواضح للكلمات، فـ"بونيفيس" كان مندهشًا من الدقة التي كان القزم يخمن بها معاني الكلمات وكأنه كان يعرفها من قبل.

في نهاية الوجبة، صب "ألسيبياديس" بعض الخمر ذي التأثير الخفيف. ملأ المعلم كأسه وكأس "بونيفيس" الفضي حتى حافتيهما بينما ملأ كأس القزم الذي كان يناديه باسم "الكونت ماوريتسيو" أو "ماوريتسيو" مباشرة حتى منتصفه فقط. والتي تجرعها في مرة واحدة. طلب القزم من المعلم أن يصب له بعضًا من شراب خمر "البرجاندي الأحمر" وقد نطق الكلمات بوضوح استثنائي. دار الحوار على المائدة حول شهية القزم الكبيرة والكلمات التي كان يغمغم بها أثناء تناول الطعام والتي لم تخفق ولو لمرة في إثارة دهشة وسعادة المعلم وإعجابه الكبير بالقزم.

استمر العشاء حتى وقت متأخر من الليل، على الرغم من أن "بونيفيس" قد شهد الأمر كله على أنه لا يمكن أن يكون حقيقيًا. قام كلاهما: القزم "ماوريتسيو"، والمعلم "السبياديس" معًا، بتوديع "بونيفيس" حتى باب المنزل وتمنيا له الخير.

وبينما هو سائر عبر شوارع المدينة الضيقة متوجهًا نحو منزل والديه. لم يستطع "بونيفيس" أن يتخلص من هواجسه وأنه ما كان له أن يترك المعلم وحده هذه الليلة مع هذا الكائن الخطير الذي ذكَّره بشدة بالكونت "بنديتي" الحقيقي، القاسي والقبيح في نوبات غضبه التي لا يمكن السيطرة عليها.

كانت شعائر غموض ما بعد الوفاة الخاصة بالأقزام تحوم كسحابة مظلمة فوق رأس المعلم في أفكار "بونيفيس" المضطربة.

"ما الذي تنتظره؟ عد على الفور!". أمر "بونيفيس" نفسه.

عندما وصل "بونيفيس" إلى منزل المعلم، كان لاهثًا ويشعر بالذعر. وجد الباب الأمامي للمنزل مفتوحًا على مصراعيه وأصوات أنين تأتي من ناحية حجرة الطعام. وبين الأطباق المبعثرة، والأكواب وبقايا الطعام، رقد المعلم "ألسيبياديس" ملتفًا حول نفسه على الأرض، مطعونًا في الصدر بخنجر يشبه الخنجر الذي استخدموه في تشريح الأرنب.

- هذا "الماوريتسيو" كان غلطة.. لم يكن طبيعيًا... العملية... كانت فكرة سيئة...

قام "بونيفيس" بتصوير "الكونت إكس" وهو يختفي في الظلام، هذا الكائن الشرير قادر على أن يرتكب أية جريمة. يعرج بإحدى قدميه في الحارات المظلمة على طول الطريق المؤدي إلى بوابات المدينة ومنها إلى الخارج متجهًا إلى مكان لا يعلمه إلا الرب.

- أكثر الأشياء التي تطلعت إليها.. هي أن أعيده.. لكي أختبر الوقت... لقد تركته يهرب... إلى الظلام...

- لا تقلق يا معلمي، كل شيء سيكون على ما يرام. فقط لا تجهد نفسك. كل شيء سيكون على ما يرام.

-أن تعود إلى الرب.. والمقاييس القديمة... المتعثر بلوغها بالنسبة للبشر.. الوقت....

بعد أن وضع بحرص الوسادة المصنوعة من الحرير تحت رأس الرجل المجروح، لم يعلم "بونيفيس" ولم يكن ليعلم أنه بعد مرور عدة قرون أخرى، سيقوم الخيميائي "راينر ماريا" سوف يغني بالكلمات نفسها تحت سلسلة التزامن غير المرئية بالنسبة للعين البشرية.



القصة الثانية عشر

قصة خيالية تلقائية





"يجب ألا تروى أحداث هذه القصة الخيالية على الناس أثناء قصهم لأظفار يدهم اليمنى".



"لا شك في أن المعجز موجود في كل مكان.

أليس عدم غرقك أثناء الاستحمام في حد ذاته معجزة؟". "بيكاسو"



في الربيع كان "بروكوبييف" يسير دومًا نحو جنوب المدينة حيث لا تنمو المباني هناك بوتيرة أسرع من الأشجار، رافعًا ناظريه نحو الجبال بانتظام. وأمام خضرة الجبال وروعتها، لا يمكن للبنايات الوردية العالية والمنشأة حديثًا سوى أن تجثو على ركبتيها احترامًا وتقديرًا لروعة هذا الجمال.

وعلى الرغم من أنه ليس غريبًا على "بروكوبييف" الإعجاب بالتصميم الخارجي والداخلي للمعمار إلا أنه كان فوق كل شيء وقبل كل شيء "هربوفيل" (هو الشخص الذي ينجذب جنسيًا إلى شتى أنواع النباتات. يشمل ذلك الانجذاب: النباتات والسراخس والأشجار والنباتات المزهرة... إلخ).

لا عجب في ذلك، لأن كل البيوت التي عاش فيها "بروكوبييف"، منذ طفولته وحتى اليوم، كانت تحتوي على حدائق واسعة. كبر "بروكوبييف" وترعرع بين أشجار التفاح، والطماطم، والورود، بالإضافة إلى زوج من

أشجار "البتولا" (كانت شجرة البتولا المفضلة دومًا لديه.) حيث ترتبط الظلال المرتعشة للأشجار بممارسته لرياضة تنس الطاولة.

كان"بروكوبييف" يلعب تنس الطاولة لصالح فريقه "رابوتنشكي" يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع، من الساعة الثانية والنصف وحتى الخامسة. وكان دومًا يسير عبر المنتزه أثناء ذهابه إلى الصالة الرياضية وأثناء عودته منها.

هذا المنتزه يُعتبر أحد أجمل الأماكن في "البلقان"، لأنه يعج بالعديد من أشجار الحور، والبلوط، والصنوبر، والطقسوسية. في بعض الأحيان، كان يتوقف ليستريح على أحد المقاعد ويقرأ.

صدق أو لا تصدق، كان "بروكوبييف" من وقت لآخر يضع كتابًا أو كتابين داخل حقيبة ظهره وهو ذاهب إلى التمرين ومعه مضرب الكرة، والكرات البيضاء، والفوطة ومجموعة من الملابس التي قد يحتاج إليها إذا ما أراد تغيير ملابسه بعد التمرين.

كان يبدو لاهثًا ومحمر الوجه بعد انتهاء التمرين من فرط ما بذله من مجهود، وقد خارت قواه لكن عقله ما زال يتمتع بكامل صفائه وفضوله مما يمكنه من التركيز في الكتاب الذي يقرؤه.

هناك في المنتزه، وعلى المقعد، كانت أفكاره تتولد مع صوت زقزقة الطيور. كان يقرأ بنهم حتى حلول الظلام، والذي كان يطول لساعة أو

ساعة ونصف في الخريف أكثر من الشتاء الذي يتسلل فيه الظلام بسرعة لدرجة أنه كان لا يستطع أن يقرأ سوى بضع صفحات قليلة.

لا توجد جلسات تدريب منتظمة في الصيف، لكن "بروكوبييف" كان بالفعل قد اعتاد قضاء فترات الظهيرة مع كتابه داخل منتزه المدينة. وفي بعض الأحيان، كان يمر من أمامه وهو جالس في المنتزه زوج من العشاق وقد ذابا معًا في عناق حار متبادل. أو مدخِّن حزين ووحيد حاله لا يقل مرارة عن الدخان الذي يستنشقه. لكن "بروكوبييف" كان ينظر فقط إلى المارة دون أن يعيرهم اهتمامًا، ويستأنف القراءة بحماس.

في وقت لاحق، كان يكتب: "في الغسق. داخل المنتزه، كان هناك ولد متوتر ومرتبك لم يكن يعرف أي طريق يسلك، ولكن ليس بسبب فتاة ما (للعلم أن "بروكوبييف" لم يقبِّل فتاة حتى ذلك الحين)، ربما بسبب "راسكولينكوف" (بطل رواية "الجريمة والعقاب" للمبدع دوستوفيسكي) الذي قام بتقسيم دماغه لعدة أجزاء، كل جزء منها ينبض على حدا كالمجنون. وقد رتب الأحاسيس الغامضة والأفكار بعضها فوق بعض". أو ربما بسبب المنتزه، أو بسبب تلك الغابة الجميلة ذات الأفنان والأوراق الرائعة. سقط صريعًا في هوى الكتب وأحلام اليقظة، كما يحدث للإنسان عندما يقع في الحب لأول مرة.



مرة أخرى، كما ذكرت من قبل، كان "بروكوبييف" يفضِّل شجرة "البتولا" أكثر من أي شجرة أخرى. كان والده - الذي سيداهمه المرض

سريعًا ويموت ولكنه ما زال حتى اللحظة وسيمًا ومفعـمًا بالـسحر والكبريـاء وهـو مـا مكنه من تكوين علاقات صداقة طويلة وحميمة وعداوات خطـيرة عـلى حـد سـواء - قد أهداه أحد شتلات شجرة "البتولا" في عيد ميلاده.

قام والده بزراعتها في الحديقة بجوار نافذة حجرتـه. تـصوَّر "بروكوبييـف" ذات مرة أن تلك الهدية التي أهداها لـه والـده الوسـيم كانـت هديـه غـير عاديـة وأنـه بصورة أو بأخرى سيربط تطـور مـستقبله البـدني والروحـاني، بـصورة مبـاشرة بنمـو "البتولا". لذلك كان "بروكوبييف" يعتنـي بهـا جيـدًا ويعطيهـا كامـل انتباهـه. بعـد مرور عدة سنوات، عندما كبر كليهما (بروكوبييـف والـشجرة)، كتـب "بروكوبييـف" أولى قصائده وأهداها لشجرة "البتولا" قائلًا:

"تهمس الشجرة ببطء

وهي تقف بجوار جدران

حجرتي

عام بعد عام

ينمو سلامها

وجذعها

مثل التربة

أتذكر كيف اعتدت احتضانها

بيدي الصغيرة وأنا طفل

اليوم صرنا أكبر

والشجرة تتحدث معي

أقل وأقل

ويداي ما عادتا منذ ذلك الحين

قادرتين على معانقة قربها".



ثم عرضت عليه إحدى الفتيات أن يربطها بواسطة سلسلة مصنوعة من المطاط المرن، يتم لفها حول رقبة الفتاة. في بادئ الأمر، شعر بقليل من الخجل فيما يتعلـق بوضع السلسلة حول عنقها، على الرغم من أنها قد أحنت رأسها لـه بخـضوع حتـى يتمكن من ربط السلسلة على هيئة عقدة من الخلف. استحوذ عليه للحظة شـعور بالحرارة في صدره وشعر وكأن على صدره صخرة هائلة.

شعر بأنه يقوم بشيء قذر، ولكن في الوقت نفسه، شعر بأنه قد أحرز نصرًا وأنه أمر ضروري.

تنزها معًا وهي مربوطة إليه. توقفا من آن لآخر لكي يريها لأصدقائه، ثم أخذها بعد ذلك بعيدًا برشاقة، وبخطى مسرعة. الخطوات السريعة نفسها التي كان يستخدمها عندما هبط من فوق جبل "فوندو".

تقافزت الفتاة بجانبه معه دون أن تبدي أية مقاومة. طوال الطريق المؤدي إلى الغرفة العلوية التي كان يأخذ فيها كل أصدقائه حبيباتهم. كان "بروكوبييف" هو الوحيد بين أصدقائه الذي لم يمارس الجنس مع فتاة حتى الآن. لكن في المساء، على الرغم من أن الفتاة كانت كريمة ومطيعة، تمنى "بروكوبييف" أن يترك المكان في اللحظة التي فتح فيها باب الغرفة العلوية. حدَّق في الضوء الأصفر الذي أتى من اللمبة المتدلية من السقف المنخفض. تلوَّى دون أن يتحرك من مكانه عندما خلعت الفتاة فستانها وناولته إياه. كانت الفتاة تتصرف كحيوان مروض. نزعت حمالة الصدر وسروالها الداخلي برقة ورفق، ليتلقفهما "بروكوبييف" منها بيديه المتعرقة المرتخية. بعدها، التفت حوله بسرعة وبصورة غير متوقعة، قرر أن يهرب بسرعة من المكان ويوصد الباب وراءه على الفتاة المطيعة العارية ويحبسها بالداخل.

في تلك الليلة، رأى في الحلم رجلًا عجوزًا طويلًا يرتدي سترة حمراء أرجوانية. كان يغمغم بشيء ما. كان الوقت في الحلم هو أحد أيام الخريف المشمسة وكان الرجل العجوز يجلس على صخرة جبلية تعرف عليها "بروكوبييف" جيدًا عندما رآها في الحقيقة بعد مرور عدة سنوات أثناء إقامته في فندق" موليكا".

- من فضلك؟

قالها "بروكوبييف" مخاطبًا الرجل العجوز في حلمه، لكن الرجل العجوز لم يلتفت إليه أو حتى يثبت وجوده بكلمة، ولكنه استمر في تمتمته. حاول "بروكوبييف" أن يفهم ما الذي يتمتم به الرجل العجوز، ولكنه لم يتمكن سوى من سماع بعض الكلمات غير المكتملة التي كان يتكرر بها المقطع الصوتي "كوشلي"... "شافي"... "رشوجل"... "هيشكو".. وكأن الرجل كان يرسل همهماته للجبل فترتد إليه على هيئة صدى صوت.



بعد ذلك بوقت قصير، بدأ "بروكوبييف" في عزف أغاني إحدى فرق الـ"روك أند رول" في البيت على البيانو ماركة "بتروف" الخاص به. استبدل دروسه الموسيقية بمحاولات محاكاة النغمات الموسيقية العصرية. وفي خلال وقت قصير، تمكن من تكوين فرقة بالحي وأطلق عليها اسم "هوجار" أو "الفايكينج" أو شيء من هذا القبيل. كان "بروكوبييف"، وأفراد فرقته يعزفون في الحفلات الراقصة التي تُقام بالمدارس الثانوية. بعد ذلك، ترك الفرقة ليدرس الآدب المقارن في مدينة بلجراد عاصمة صربيا، أو كما اعتادوا أن يطلقوا عليها اسم "الأدب العالمي".

وفي الوقت نفسه، كان مستمرًا في عزف أغنية "إيفرجرين" لـ"باربرا سترايسند" في بار يُسمى "توبشيدريسكي شتيمونج" حيث تحييه نساء الليل بصوت يشبه مواء القطط.

كـان "بروكوبييـف" يعـيش في حجـرة مـستأجرة في شـقة ملـك لعائلـة "جـاليتش" في شـارع يُـسمى "كتائـب البروليتاريـا" وهـو متفـرع مـن شـارع "متحف تيسلا".

اصطفت بالشارع الأشجار التي تغنَّى بها "أرسين داديتش" في أغنيته الشهيرة "لا تعطِ شيئًا لإينس" Ne daj se Ines. كانت عائلة "جاليتش" تمتلك بيانو تم الحفاظ عليه بصورة جيدة. وكان المنزل يـزوره بانتظـام أصـدقاء ابـنهم "فالـدا" في المدرسـة الثانوية والذين أقام معهـم "بروكوبييـف" علاقـات صـداقة وطيـدة منـذ أول لقـاء جمعهم ببعض.

انضم اثنان من أصدقاء "فالدا" لفرقتـه وفتـى آخـر ذو شـعر أسـود مـن الحي نفسه. انضم إليهم هو الآخر ضاربًا للطبل. ومـن رحـم بـدروم مجمـع الشقق الذي يقطن به، وولدت فـرقتهم الجديـدة التـي أطلقـوا عليهـا اسـم "صوت الشارع".

في البداية، كان أعضاء الفرقة يعزفـون عـلى آلات مـستعارة مـن بعـض الـصبية الأثرياء المدللين الذين يمتلكونها لكن لا يجيدون العزف عليها. ما زال "بروكوبييـف" يتذكر لوحة المفاتيح ماركة "فارفيسا" التي استعارها من أجل أول حفل موسيقي له (أقيمت حفلاتهم في المدارس الثانوية والساحات العامة).

لاحـظ "بروكوبييـف" وأعـضاء فرقتـه الوليـدة أن الأمـور لـن تـسير عـلى مـا يـرام مـا لم يمتلكـوا آلاتهـم الخاصـة بهـم، لـذا كـانوا يـذهبون في عطلـة نهاية كل أسـبوع لـسوق "زيمـون" ليبيعـوا الجينـز المهـرب مـن "ترييـستي"

بإيطاليا، واللمبات القديمة، والخزائن، والببغاوات الصغيرة، والقوارير المشروخة مـن أجل الحصول على المال اللازم لشراء آلات جديدة.

كانت الفرقة تنفق نصف ما يحصلون عليه من أموال على التيشيرتات ليهـدوها لأوائل المعجبين بهم من الرجال والفساتين لمعجبيهم من النساء. احتفظوا بالنـصف المتبقي في صندوق نقود كبير على هيئة وحيد القرن من أجل شراء آلات جديدة.

في ذلك الوقت، وربما لأنه كان يعزف موسيقى الروك مستعرضًا الجانب المتمـرد من نفسه على المسرح، تورَّط "بروكوبييف" في إحدى الحوادث في الكلية. فقـد قـام برش مساعد أستاذه - الذي أصبح فيما بعد سفير "صربيا والجبل الأسـود" في الـبلاد الأوروبية العظمى - بمسدس ماء.

كان "بروكوبييف" على وشك أن يُفصل مـن الكليـة بـسبب تلـك الحادثـة، لـولا تدخل أستاذه القديم "نيستور" لحمايته وإعادته لمقاعد الدراسة مـرة أخـرى، لكـن بالطبع ليس قبل أن يعاتبه بقسوة على فعلته. وبعد مرور عشر سـنوات عـلى تلـك الحادثة، تكرر الـسيناريو نفـسه، ولكـن هـذه المـرة في مـسقط رأس "بروكوبييـف" عندما كان يعمل لصالح "راديو الدولة" ولم يستطع أن يتخلص من فيروس موسيقى الروك أند رول الذي يتملكه.

وبرابطــة مــن محبــي موســيقى الــروك أنــد رول المحنطــين، أنــشأ "بروكوبييــف" فرقــة جديــدة أســماها "فــم لفــم" Mouth to Mouth استطاعت أن تفوز بإحدى الجوائز في مهرجان شـهير لموسـيقى الـروك، وقـد قامت الفرقـة بتـأليف عـدد مـن أفـضل أغـاني الـروك وتـسجيل أول شريـط

كاسيت لهم. لكن المؤسف في الأمر أن "بروكوبييف" تم فصله مـن عملـه في "راديـو الدولة" وقيل إن السبب هو ميوله "الأناركية الليبرالية" أو شيء من هذا القبيل. كل هذا كان جراء غش وتدليس واحتيال تم بواسطة "جـوبلز" - مـدير محطـة الراديـو وممثل منتج برنامج عن النحت الاجتماعي – الواقعي. والذي كان يتحرق شوقًا لكي يلقي به في الشارع. ولكن هذا الأمر سوف يتم مناقشته في موضع آخر.



أما الآن فدعونا نعود قليًلا إلى القصة الخيالية الخاصة بنا. انتقلت فرقة "صـوت الشارع" لكي تتدرب في القبـو الخـاص بالقاعـة البيـضاء المـستطيلة التابعـة للمركـز الثقافي للطلاب. بعض الطلاب "الدخلاء" كانوا يعزفون أيضًا هناك وكان يرتاد المكـان بصورة متواترة عدد من الفنانين والكتَّاب. اعتاد "بروكوبييـف" بعـد أن ينتهـي مـن حفلته، أن يظل مستيقظًا حتى الفجر لمناقشة موضوع ضرورة تجسيد مبادئ الثورة في الروح، وفي الأداء العام، وفي الإبداع، والابتكار.

بدأ "بروكوبييف" العمل في مجـال جديـد، ألا وهـو نـشر عـدد مـن مقالاتـه في المجلات الأدبية المختلفة: على سـبيل المثـال، مقـالات عـن القـصائد النثريـة، والنـثر الشعري، والانطباعات، والتعبيرات. كتب أحد أصدقائه من الأدبـاء في ذلـك الوقـت يقول:

"بقـدر مـا يعنيـه الزمـان والمكـان، أنـا و"بروكوبييـف"، التقينـا في فـترة السبعينيات البعيدة في حجرة صغيرة كانت تـضم المكتـب التحريـري لمجلـة

"الكلمة الأدبية" خلال فترة الازدهار الأسطورية لتلك المجلة وخلال أوقات الزهد البطولية للإبداع والفكر".

لكن هذه قصة مختلفة تمامًا ولكي نضع الأمور في نصابها الصحيح، لن يكون مقبولًا بالنسبة لي أن أروي الحكاية بهذا التفصيل المهووس لأنني واثق من أن "بروكوبييف" قد يصبح غاضبًا علي.

شيء واحد كنت متأكد منه: أنه على الرغم من أن "بروكوبييف" قد توقف عن ممارسة رياضة تنس الطاولة منذ وقت طويل، إلا إنه بدأ أمرًا جديدًا رائعًا، كما اعتاد أن يفعل في تلك الأمسيات بعد انتهاء اليوم الدراسي في المنتزه، بدأ في التهام الكتب وفي إسعاد نفسه بقراءة مختلف صنوف الآدب بينما نحن نناقش موضوع المنشطات. ونؤكد على حقيقة أن تدخين "الماريجوانا" كان منتشرًا على نطاق واسع بين عازفي موسيقى "الروك أند رول" وبين بعض منتحلي لقب "كُتَّاب" كانوا يدخنون هذا العشب في الحفلات.

كانت سيجارة "الماريجوانا" تمر بهدوء من فم للآخر على كل الموجودين بدخانها الخانق.

إحدى ربات الشعر، كاتبة طموحة، وصديقة لـ"ألن جينسبرج"، هذا الرحالة الذي كان يجوب العالم من الهند إلى باريس. تزوج "ألن" ثلاث مرات: مرة من امرأة يهودية، والمرة الثانية من سيدة بوذية، والمرة الثالثة من وثنية كانت تصطحبه من مقهى يسمى "الببغاء الذهبي" عبر الطرق حتى تصل به إلى شقتها من أجل أن يشربوا الحشيش معًا. وفي طريقهم،

اعتادا اصطحاب آخرين كانت أعينهم مفتوحة، لكنهم في الواقع كانوا مستغرقين في أحلامهم من جراء تعاطيهم المخدرات.

وبعد وقت قصير، بدا الجميع متحابًا للحد الذي لا يستطيعون فيه في أغلب الأحيان التعرف على بعضهم البعض أو معرفة أين هم ولا من أين أتو.



كان "بروكوبييف على موعد مع المجهول قبل انقضاء سنواته التسع الحارة - الباردة التي قضاها في مدينة بلجراد.

بعد ذلك بربع قرن كامل تقريبًا، اكتشف "بروكوبييف" أن المجهول قد ظهر لكي يؤذيه مرة أخرى.

في إحدى المنافسات المقررة للحصول على جائزة أفضل رواية لهذا العام، كان "بروكوبييف" أحد المتنافسين، إلى أن قام هذا الشخص المجهول بإرسال عدد من الإيميلات لكل أعضاء اللجنة المنوطة بتقييم الأعمال المقدمة. قام فيها بتشويه "بروكوبييف" بصورة سيئة وبعدوانية بغيضة ووصفه بأنه شخص مثير للمشكلات.

كانت ردة فعل "بروكوبييف" سريعة وخاطفة: وقد تمنى على الفور أن يتمكن من أن يضع يديه على أحد الإيميلات وأن يبدأ في البحث من جديد لكي يبحث عن بعض التفاصيل الدقيقة، مثل أن هذا المجهول قد ضاعف أثناء كتابته الحروف اللاتينية في العلامة الصوتية المميزة وهو الأمر الذي تفتقر إليه أغلب أجهزة الحاسوب العادية." إس إس" بدًلا من "إش"

و"سي" بدًلا من "تش". لا يهم، تمامًا كما كان الوضع في بلجراد في حقبة الثمانينيات بالنسبة "لبروكوبييف" والتي تمثِّل له أولى تجاربه الصادمة مع المجهول. اللحظة التي بدأ فيها الصراع الحقيقي مع المشكلة. شعر "بروكوبييف" بتعب غريب يجتاح جسده. والصور الكابوسية (التي كانت تستدعي الذكريات عن طريق الخطأ) بدأت تفيض من جديد.

- هناك شخص ما على التليفون يريد أن يتحدث إليك!

نادى عليه رفيق حجرته "بودو" من الصالة، ثم أضاف قائلًا:

- لم يعرفني بنفسه.

كان "بروكوبييف" يتشارك مع كلٍ من "بودو" و"دوبراكا" شقة في شارع "جراشينيشكا" في وسط مدينة بلجراد. وكان رفيقهم الثالث "دوبريكا" يعمل وكيلًا لشركة "كولينسكا" ويحتل معظم الشقة - حجرتين ببلكونة - بينما "بروكوبييف" و"بودو" كان لكل منهما غرفة خاصة. وعلى الرغم من كونها غرفة واحدة إلا إنها كانت واسعة وذات سقف عالٍ مما جعلهما يشعران وكأن كل غرفة من الغرف هي شقة مستقلة بذاتها.

- مرحبًا!

- نهارك سعيد. هل أنت "بروكوبييف"؟

- نعم، هذا أنا، من الذي يتحدث؟

- ....

- ومن أين تتصل؟

- من وزارة الداخلية؟

صمت كلاهما لبعض الوقت: كان "بروكوبييف" متفاجئًا، مأخوذًا بفكرة "لقد عثر علي! أنا ضعت". الطرف الآخر في المقابل كان ساديًا - على ما أعتقد - بسبب ردة فعله. كان شعور "بروكوبييف" بالخوف له ما يبرره: لأنه كان يقيم في مدينة بلجراد بصورة غير شرعية! مرت شهور قليلة على وفاة الرئيس " جوزيف تيتو" وبدا الأمر بعد وفاته الصادمة كما لو أن المدينة كلها أصبحت تحت المراقبة طوال الوقت ولكن دون أن يشعر أحد.

في البلديات، وبين الموظفين في الكلية، وربما بين النوادل في الكلية، جواسيس متنكرين متمركزين في مواقعهم.

حتى الموظف الموجود في قسم التسليم في مكتب البريد، ذلك الشخص الذي اعتاد الثرثرة مع "بروكوبييف" بمرح وسعادة كلما أتى ليرسل طرد ملابسه المتسخة إلى مدينة "سكوبيه"، لم يعد يثرثر بمرح وأصبح ينظر إلى الطرد وحسب في صمت.

- ولماذا.. لماذا تتصل بي؟

في ذلك الوقت، كان "بروكوبييف" بعيدًا تمامًا عن الفوضى والإزعاج العام الـذي تبع وفاة الرئيس "تيتو"؛ وأصبح مهووسًا بعلم الفلك.

بشكل متزامن مع حفل التأبين الأسطوري الذي تم إهدائه للوحيد والأوحد الـذي لن يتكرر.. قائد العالم، كان "بروكوبييف" على الجانـب الآخـر غـير مهـتم بمـا يحـدث يلتهم الكتب والملخصات والتنبؤات الفلكية في أحلامه.

في هذا التوقيت، كان قد دخل أول فترة لزحل، التـي هـي وفقًـا لمنطـق الفلـك، بداية المغريات الخطيرة في حياة الإنسان. وفي كل مرة كان يشعر فيها بالرعب، كـان يتمكن من الخروج بفكرة أن كل ما يحدث له من مصاعب ومـشكلات ومنغـصات هي بسبب كوكب زحل السيئ.

- لا يمكنني أن أخبرك الآن. عندما نلتقي ستتضح أمامك كل الأمور.

- وأين من المفترض أن نلتقي؟

- أنصت إلي جيدًا. مكان اللقاء سيكون في متنزه الطلاب تحت النصب التذكاري "بانيتش". الموعد سيكون غدًا، نصف ساعة بعد الظهر.

-تقصد في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف؟

- بالطبع، أنا من سيقوم بالاقتراب منك.

- ولكن، أنا... لا أعرفك.

- ما يهم هو أنني أعرفك! لهذا موعدنا سيكون غدًا، بعد نصف ساعة من الظهيرة.

بقي "بروكوبييف" مستلقيًا في فراشه يتقلب طوال الليل. تخيَّل أنه في مثل هذا الوقت غدًا لن يكون في شقته في شارع "جراشنيشكا" ولكن سيكون محتجزًا في حجرة من حجرات التحقيق غير المعروفة وحده مع بعض القضاة.

وجه القاضي - غير معروف - وهيئة المحلفين التي لن يستطيع أن يراها بسبب الضوء المسلط على عينيه بشكل مباشر. لقد كان متأكدًا من أن هذا كان سيحدث إن عاجلًا أم آجلًا، وهو ما جعله أكثر شحوبًا وخوفًا من المجهول الذي يختبئ في مكان ما في الظلام. هذا المجهول سوف يأمره بصوت مكتوم كما كان يفعل على التليفون، ولكن بصوت أعلى: "الرفيق "بروكوبييف"، قف! ما هي أقوالك فيما يتعلق بأنشطة التحقيق وشهادة الشهود؟".

"ليس لدي أقوال أخرى أكثر مما قلت أثناء.. الاستماع و.... أستميحكم عذرًا بسبب تقاعسي عن قول الحقيقة وتسجيل مقر إقامتي في شارع "جراشانيشكا".. لقد لاحظت خلال إدلاء الشهود بشهادتهم أنني.. ما كان يجب علي أن أتقاعس عن التسجيل، خصوصًا أن أرض أبائنا تمر بتلك المرحلة الحساسة.. على الرغم من رغبتي في ألا أبدو معاديًا لكم.. لم أكن يومًا عدوًا لأحد ولن أكون...".

من خلال استعراض الموقف:

"تقريرنـا حتـى الآن يفـسح الطريـق أمـام الاسـتنتاج الـذي نقـر فيـه أن الرفيـق "ألكسندر بروكوبييف"، طالب الدرسات العليا في كلية علوم اللغـة في مدينـة بلجـراد، متورط في أنشطة مثيرة للفتنة وأطلق عبارات مثيرة للفتنة خـلال أشـهر صـيف 1980 دعا فيها إلى تقويض دور الدولة والنظـام الاجتماعـي الخـاص بجمهوريـة يوغوسـلافيا الاتحادية الاشتراكية وقيادة بلادنا. ووفقًا لكونـه بالغًـا ومواطنًـا مـسؤولًا في جمهوريـة يوغوسلافيا الاتحادية الاشتراكية، بهذا يكون قد خان أرض آبائه الاشتراكيين وكسر يمـين الولاء لرئيسه والقائد الأعلى، المارشال "تيتو"، وشعبه.

ولذلك، وعلى أساس وجود شبهة مبررة بأنه قد ارتكب عملًا إجراميًـا، تقـرر أنـه سيبقى قيد الاحتجاز حتى إشعار آخر!!".



المدعي العام والجلاد

"المجهول"



هل لك أن تتخيل إلى أي مدى كان "بروكوبييف" مضطربًا وإلى أي مدى كان مقدار ما حظي به من نوم قليل، وكيف كانت حالته النفسية وهو يستقبل اليوم التالي وهو مثقل بالهواجس المقلقة التي سيطرت عليه، لكنه رغم كل الخوف والقلق، وصل في الموعد المتفق عليه ووقف أمام النصب التذكاري "بانيتش". يا ترى ما هو كم المشاكل الذي يمكن لهذا الرجل المجهول أن يتسبب في حدوثه لـ"بروكوبييف"؟ وما هو كم العقوبات التي قد ينزلها به بسبب الجريمة الشنعاء التي ارتكبها؟! وكيف تثنى لـ"بروكوبييف" أن يرتكب مثل تلك الحماقة وألا يسجل مقر إقامته.. وفي الوقت الذي مات فيه "المارشال"؟!

تجوَّل "بروكوبييف" حول النصب التذكاري لبعض الوقت، محدقًا في المارة مسرعي الخطى وفي الرجال المرتدين للقبعات الجالسين على المقاعد. وبعد مرور 20 دقيقة وجد "بروكوبييف" نفسه وقد فقد السيطرة على نفسه واستوقف رجًلا يرتدي نظارة سوداء وممسكًا بجريدة في يده وسأله:

- هل تبحث عني؟

أجابه الرجل وهو ينظر إليه بازدراء:

- لا أعتقد ذلك.

انتظر "بروكوبييف" لنصف ساعة أخرى. لم يقترب فيها منه أحد. ولم يظهر ذلك المجهول القادم من وزارة الداخلية حتى الآن.

عاد "بروكوبييف" إلى شارع "جراشينيشكا" بوسط المدينة وقد حنى ظهره كأنما يتخفى كي لا يتعرف عليه أحد. بدأ رذاذ المطر ينهمر عليه وهو يسير في شوارع المدينة القديمة، لكنه سرعان ما تبخر بفضل شمس الصيف.



أحيانًا، وعلى الرغم من السعادة البالغة التي كان يبديها بها لمجرد كونه ما زال باقيًا على قيد الحياة، كان "بروكوبييف" يشعر بالصدمة بسبب شعوره المؤسف بأنه منفي في وطنه. ووجد أن أكثر شيء يساعده على التغلب على هذا الشعور هو السفر. فالسفر ينعش الروح، ولكنه أيضًا يصيب الأسنان بالعفن والتسوس.

فكل تلك التغيرات في الطعام، والماء، والمناخ، تؤثر على الأسنان وبالتالي ستكون الأسنان هي أول عضو صناعي يجب على "بروكوبييف" أن يزرعه في جسده.

وعلى الرغم من أنه مجبر على زيارة عيادة طبيب الأسنان بعد كل رحلة خارجية، إلا أن حماسته للسفر لم تفطر ولم تخبُ جذوتها، سواء كان السفر داخل أو خارج حدود الوطن. إن البعد عن المدينة لمسافة عشرة كيلومترات والاستمتاع بمشاهدة المناظر الطبيعية في الغابات، بل ومجرد التركيز على مشاهدة طائر صغير ينقر في العشب، قد يكون كافيًا في بعض الأحيان لأن ينعش روحه. في مرة من ذات المرات التي كان فيها "بروكوبييف" بالغابة دوَّن إحدى قصائد "الهايكو" اليابانية في دفتره الأخضر، كتب:

"أيها الجبل العاري

تملؤك الأشجار

على الرغم من اسمك".

"بروكوبييف" مقتنع تمامًا أن العزلة في الطبيعة تتغلب على الشعور بالنفي في المجتمع. وبعد مرور يومين أو ثلاثة من هذا الاختلاء، بدأت روحه تشتاق مرة أخرى للمتع التافهة وفوضى البشر والعودة إلى الاكتئاب، والأخطاء المعمارية الموجودة في مدينة "سكوبيه".



كان "بروكوبييف" قد التزم لبعض الوقت تجاه إحدى المؤسسات الموجودة المحمية بجدران عالية وبوابات محكمة. لم يعرف بطريقة فتح البوابات سوى عدد قليل من الحراس يرتدون اللون الأبيض. أقام "بروكوبييف" علاقة صداقة مع الرجل صاحب "العين الثالثة" هناك.

على العكس من الرجال الآخرين أصحاب "الثلاث عيون"، لم يكن لديه عين إضافية في مقدمة رأسه ولكن في صدره، تخفيها بيجامته. وقد بقيت مخفية بالنسبة للآخرين. لقد كانت مخفية حتى عن رئيس الحرس الذي يرتدي زيًا أبيض ويدون يوميًا في دفتره الضخم كل الأسماء، والضمائر، والصفات، والأفعال التي يتفوَّه بها المسجونون. في وجوده، يصبح الرجل ذو "العين الثالثة" مرتبكًا تمامًا عندما يرى رئيس الحرس ويغمغم بمقاطع لفظية غير مترابطة وبكلمات سخيفة وعبثية مثل "فرويي"، "أهتروليو"، "جنيزدريت" أو

"اسدرواو". دوَّن رئيس الحرس بمنتهى التحذلق تلك المقاطع الصوتية في دفتره، وهو يهز رأسه بتمعن وتفكير. لكن "بروكوبييف" كان مقتنعًا أن الرجل صاحب العين الثالثة كان يدَّعي بأنه بلا حول ولا قوة لكي يخدع بقية الحرس.

على الرغم من أنه لم يعترف يومًا بذلك، كان هناك العديد من الأشياء التي كان بحاجة لتعلمها! همس "بروكوبييف" في أذنه كي يشجعه على الاستمرار في إخفاء الحقيقة بالدرجة نفسها من الكفاءة والنجاح السابقة. ولكن الرجل ذا العين الثالثة نظر إليه بدهشة وتعجب وكأنه لا يصدق ما سمعه ورد عليه بمقاطع صوتية مثل "هيرك، هيرن، هيرد، كفا- كفا-كفا.. كفا". تعلَّم "بروكوبييف" من هذا الموقف أن الخواء الداخلي ليس بشعًا كما يبدو وأن القذارة ليست قذرة بالدرجة التي تبدو بها، وأن اللوائح التي تحكم لم توضع لكي تناقش ولكن لأجل الحصول على المتعة.

بذل "بروكوبييف" جهدًا كبيرًا كي يتابع كل الفاعليات التي تجري داخل المؤسسة والتي كانت تبدو كمشاهد مسرحية كُتبت بشكل رديء ومبتذل. كما لو كان العالم بأسره موجود داخل تلك المؤسسة وحسب، على المسرح. في وقت ثابت ومدة ثابتة ومحددة، وعندما ينتهي العرض، يسدل الستار وينحني الممثلون احترامًا للجمهور الذي هو "بروكوبييف"، والذي يمكنه بعد انتهاء العرض أن يذهب لينام. في هذه الحالة يصبح الحلم هو رحلة العودة إلى المنزل. نام "بروكوبييف" بعمق. نام لوقت طويل.

حلم بالرجل ذي العين الثالثة ذات مرة، لكن في الحلم كان الناس ينادونه بالمعلم "براهمابوترا" وكان قريب الشبه لدرجة كبيرة بالرجل العجوز الذي كان

يرتدي عباءة أرجوانية سبق ورآه في حلم آخر منذ وقت طويل. على الرغم من أنه قد بدا أصغر بكثير الآن. الرجل ذو العين الثالثة، أو المعلم "براهمابوترا"، كان خطيبًا بارعًا ويتحدث بصورة واضحة مع الناس (الأمر الذي لم يثر دهشة "بروكوبييف" ولو للحظة) وكان يرتدي بدلة رياضية برتقالية اللون. وكان يجلس في الصف الأول داخل ملعب رياضي فارغ ويحفز الحضور الآخرين في الحلم على الاستمرار في ركوب الدراجات على المضمار الدائري.

كان"بروكوبييف" يقود دراجة قديمة وبالية ماركة "بوني" والتي كانت تصدر أصوات صرير كلما تحرك البدَّال. شعر بإرهاق شديد وإعياء كبير. "لا يمكنني القيام بذلك أكثر من هذا. يوجد الكثير من السواد بداخلي يثقل كاهلي ويمنعني من الاستمرار". اشتكى للمعلم "براهمابوترا" وهو يتصبب عرقًا. ابتسم المعلم "براهمابوترا" له من على المنصة. وقال له: "انظر بعمق وسوف ترى ما بداخلك. من وراء تلك السحب، يشع النور المشجع". أدر البدَّال، واستمر في ركوب الدراجة!

كان هذا على الأرجح في وقت مبكر، وأنت تغطس ثم ترتفع إلى سطح بحر أفكارك الطائشة وتحتل مساحات ما بين الحلم والحقيقة. أصبح "بروكوبييف" متأكدًا من شيء واحد: أنه على الرغم من كل الشقوق والثقوب والهاويات التي تسمم حياة الإنسان، فإن هناك دومًا طريق قد تبدو في بعد الأحيان كاملة، وفي البعض الآخر تكون عكس الكمال، فقط من أجل تطهير النفس البشرية مما يعلق بها من اهتزازات سلبية ناتجة عمَّا يحيط بك من أناسٍ مرتبكين. فضًلا عن شياطينك الشخصية؛ وهي في حالتنا هنا هي الكتابة. حتى ذلك الحين، كما سبق وذكرنا، فإن

"بروكوبييف" قد بصر وخبر وأصاب بعض النجاحات في عالم الآدب، ولكنه أصبح مدركًا أنه يمكنه أن يقوم بعمل المزيد. ومنذ ذلك الحين - هل لك أن تصدق؟ - قام بإصدار أكثر من خمس عشرة كتابًا. لا داعي للتصفيق لو تكرمتم. لم تقُده كل طرقه إلى مكان ما في النهاية. لقد كان هناك بعد مقابلته للعديد من الطرق المسدودة. والبعض الآخر يشبه السير في دوائر، ولكن هذا الطريق، كما قال "براهمابوترا"، لم يذهب سدى. ما يهم هو أنه يسير. أنا أسير، وأنت، وكل شيء يسير ويتحرك، نعم، نعم، نعم.

أحد كبار الشخصيات في مجمع "آلهة الأدب المحلي، أكاديمي معروف بعبارته الشهيرة "كلمتي واحدة ونهائية غير قابلة للمناقشة" المعبرة عن توجهه. له كذلك العديد من أمثلة التكبر الأخرى التي صرَّح بها: "إن الأعمال الأدبية اليوم ما هي إلا مجموعة جوفاء من التبذير الفارغ". شعر "بروكوبييف" بالدم يفور داخله بعد أن دخل في حالة من الجدل اللفظي معه بالحماسة والتهكم نفسيهما اللتين كان يمارسهما في عراك الطفولة وكان غالبًا ما ينتهي به المطاف إلى أنف أو رأس مكسور. لم يستطيع أن يحتمل ورد عليه بصوت مرتفع جدًا: "يبدو لي بشكل واضح أنك قد توقفت عن القراءة!"

"هذا هراء!". صرخ الأكاديمي الكبير. "بروكوبييف" الذي، كما سبق واكتشفنا من قصته حتى الآن، أنه كان معتادًا الدخول في مشكلات عديدة مع بعض الشخصيات المحسوبة على السلطة ومع كل ما هو رسمي، اندفع خارجًا من الحجرة والغضب مرتسم على وجهه.

لكن "بروكوبييف" يعلم، أنه على الرغم مـن استعراضـه المـبرر، أن الحقيقـة بـشأن الكتابة الأدبية والقراءة في الوقت الحاضر، أصبحت تمامًا مثل موسيقى "الروك أند رول" التي تم اختصارها في فرق مثل "شوجربوب". والفيلم كعمل فني قد اختُزِل في نظارات "هوليوود" الغبية ذات الأبعاد المختلفة، والفن الذي أصبح مجرد قطع بلا شكل محدد، والأعمال الأدبية بتنوعها وثرائها قد تم اختزالها هي الأخرى في الـدائرة الـضيقة للكتـب الأكثر مبيعًا لكتَّاب وروائيين مثل "كويلو" وأمثاله، و"أوج مانـدينو"، و"دان بـراون". وفي مواجهة كل هذا الطمع الذي يسيطر على العامة الجـائعين، يقبـل معظـم الفنـانين أن يفعلوا أي شيء وإلا فعليهم الاستعداد للموت جوعًا.

التقى "بروكوبييف" بالعديد من هؤلاء الأدباء الذين يركـضون بـأعين لا تـرى وراء هذا النجاح الزائف متناسين أن المعجزات لا تأتي بصورة ميكانيكية. منذ عشر سـنوات مضت، عندما تفجرت حمى الإنترنت، أخبره صـديقه "سـيمون" عـالم الفلـك أن تنـوع المصالح والتطابق بين المجموعات الاجتماعية المختلفـة أصـبحت حتميـة وقـد يـؤدي هذا إلى خلق دوائر يتواصـل مـن خلالهـا النـاس أصـحاب الاهتمامـات المـشتركة مـع بعضهم البعض بأمان، تقريبًا في السر. اليوم، أصبح "بروكوبييف" عـضوًا في أحـد هـذه الدوائر.

أما الأعضاء الآخرون في هذه الدائرة فهم يأتون تقريبًا من مختلـف أنحـاء العـالم، وعلى الرغم من ذلك التنوع الكبير إلا أن "بروكوبييف" بات يـشعر وكـأنهم جيرانـه في الشارع نفسه. فجميعهم يؤمنون - أو تقريبًا يؤمنون - بأن أحداث القـصص الخياليـة ما زالت ممكنة الحدوث، مع بعض التغييرات، سواء كانـت كبـيرة أو صـغيرة. إلا إنهـا تبقى في النهاية ممكنة.

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

	العنوان	المؤلف	البلد
1.	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
2.	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
3.	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
4.	جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
5.	نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
6.	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
7.	علاقات دولية	إلييت إليكا	ألبانيا
8.	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
9.	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
10.	حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
11.	أفلام في قصص	مجموعة مؤلفين	أمريكا
12.	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
13.	اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
14.	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
15.	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
16.	جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
17.	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
18.	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
19.	حذارٍ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
20.	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
21.	امرأة في حقيبة	رافاييل مونتيز	البرازيل
22.	بيتنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
23.	الأسئلة	أنطونيو شيرشينيسكي	البرازيل
24.	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
25.	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
26.	الأثر المقدس	إيسا دي كيروش	البرتغال
27.	الأشياء الماضية	برونو فييرا	البرتغال
28.	أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
29.	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
30.	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة

31. جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
32. أبسنت	أيفر تونش	تركيا
33. أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
34. ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
35. امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
36. توباز	هاكان جنيد	تركيا
37. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
38. جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
39. جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
40. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
41. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
42. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
43. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
44. لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
45. مينتا	سولماز كاموران	تركيا
46. نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
47. سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
48. المزيد	هاكان جنيد	تركيا
49. ذكرى سوداء	ألبير جانيجوز	تركيا
50. المدينة ذات العباءة القرمزية	أصيلي إردوغان	تركيا
51. جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
52. معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
53. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
54. حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
55. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
56. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
57. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
58. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
59. احذري يا آنا	ماريك سينديلكا	التشيك
60. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
61. العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
62. بال خال	أولجا سلافينكوفا	روسيا
63. رسائل سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي

64. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
65. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
66. يوغوسلافيا أرض أبي	جوراي فوينوفيتش	سلوفينيا
67. الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
68. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
69. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
70. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
71. بنات الصين	يي مِاي	الصين
72. الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
73. رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
74. سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
75. النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
76. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
77. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
78. المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
79. جريمة في باريس	صوفي إناف	فرنسا
80. الأخ الأكبر	ماهير جوفين	فرنسا
81. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
82. التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
83. شيء للعشاء	ميجيلا بودوين	فنزويلا
84. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
85. صلوات ليلية	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
86. حياة على باب الثلاجة	أليس كويبرز	كندا
87. صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
88. القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
89. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
90. القزم	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
91. د. مينجوس.. الأخ الأكبر	خيسوس ريكاردو فيلكس	المكسيك
92. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
93. صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
94. سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
95. حرية حزينة	فريدريكا جيزفاينر	النمسا
96. فرق توقيت	ألموت تينا شميت	النمسا

العنوان	المؤلف	البلد
97. دكَّان الساري	روبا باجوا	الهند
98. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
99. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
100.المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
101.تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
102.عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا
103.أفكار سيئة	لويد ميركام	ويلز
104.أيتام ذهبيون	جاري ريموند	ويلز

صدر من كتب عامَّة:

العنوان	المؤلف	البلد
105.الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
106.قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
107.هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
108.المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
109.الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
110.الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
111.الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
112.القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
113.مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
114.زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
115.يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
116.الذكاء الأخضر	ستيفانو مانكوسو	إيطاليا
117.خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
118.ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
119.أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
120.قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
121.النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
122.لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
123.جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
124.الجري	ثور جوتاس	النرويج

125.عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
126.اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

127.بيلبورت: قصة مدينة	جيفري لويس	أمريكا
128.سيلفي مع الشيخ	كريستوف بيترز	ألمانيا
129.لا صديق سوى الجبال	بهروز بوجاني	إيران
130.شرخ في الحائط	كلاوديا بينييرو	الأرجنتين
131.شمس الحرية	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
132.طلاق على الطريقة التركية	أسمهان أيكول	تركيا
133.لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
134.يوم هنا ويوم هناك	أجيولار كامين	المكسيك
135.روميو جولييت في البلقان	ديان ترايكوسكي	مقدونيا
136.أختي فاتلة متسلسلة	أوينكان برايزوايت	نيجيريا
137.لا سوبيربا	إليا ليونارد	هولندا

#كتب_مختلفة #مقدونيا



"القزم" هي مجموعة من القصص القصيرة الخيالية للكبار. قام "بروكوبييف" باقتباس القصص الخيالية المشهورة ورسم حولها أشخاصًا وأحداثًا من خياله هو، لنجد نفسنا دائمًا بين عالمٍ خياليٍّ نعرفه من طفولتنا، وعالم الكبار الذي دخلناه في كبرنا. مثلًا، سنجد قصة "عقلة الإصبع"، حيث تعاني الشخصية الأساسية من عقدة أوديب ومن علاقته بأمه، أو شخصية "الصيَّاد" من قصة "سنو وايت والأقزام السبعة"، حيث يحكي لنا الصياد قصة الأميرة الجميلة وخروجه لقتلها من وجهة نظره هو. بعض القصص الأخرى تعود في أصولها إلى القصص الشعبية المقدونية والتي أعطى فيها "بروكوبييف" لنفسه حرية تغييرها كما يريد.



ألكسندر بروكوبييف

تخرَّج في كلية الفلسفة قسم الأدب العام والمقارن، جامعة بلجراد. صدر له ثلاثة عشر كتابًا مجموعات قصصية، ومقالات، وكذلك قصة قصيرة وهي: "الرجل الذي يختلس النظر" (2007). فازت مجموعته القصصية هذه "القزم" بجائزة البلقان عام 2012. عمل محررًا لعدة مجلات، وكان عضوًا بلجنة تحرير مجلة "قطار الشرق السريع" بأكسفورد، إنجلترا، وكذلك مجلة "عالم الهايكو" بكيوتو باليابان. حاليًا، يعمل محررًا لمجلة "القصيدة". كتب العديد من سيناريوهات الأفلام، والمسرح، والمسلسلات الإذاعية، والكتب المصورة. وهو أيضًا المدير الفني لمهرجان البلقان الأدبي العالمي، ومقره بـ"سكوبيه" عاصمة مقدونيا.



60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg


9 789773 194642 >



غرابة قتل
دراكولا
الأقزام السبعة
خيانة
سنووايت